الفصل الثاني

- الانتماء .
- القومية .
- نشأة الدولة ..... قوتها .....

obeikandl.com

obeikandl.com

الإسلام ثم الوطن والوطنية

مـــن المعلوم أن الوطنية هي افتخار واعتزاز المسلم بالدين الإسلامي الحنـــيف ثـــم حب الوطن ، والشعور بارتباط نحوه . فالوطن هو قطعة من الأرض ، وإن الوطنية هو ارتباط الفرد بهذه القطعة من الأرض التي تعرف باسم الوطن . والإنسان يحب وطنه ، فيشعر نحوه بتعلق قلبي عميق ، فيفرح لســـعادته ، ويـــتفجع عـــند نكبته ، ويسعى لخدمته . حتى أنه لا يتأخر عن التضـــحية فـــي سبيل رفع راية الإسلام ثم وطنه ، إذا اقتضى الحال بأعز ما يملـــك حـــتى لو كانت حياته لأن منبع الوطنية وبذرتها الأولى لدى المسلمين كلمة : **(لا إله إلا الله محمد رسول الله)** ثم حب الوطن .

إن منـــبع الوطنية اعتزاز المسلم بدينه الذي يضمن له سعادة الدارين « الدنيا والآخرة » والتمسك بتعاليمه ، والاقتداء بالسلف الصالح من أمته . ثم حـــب الوطن ذلك لأن الإنسان يشعر بتعلق عاطفي وارتباط بالمحل الذي ولد ونشأ وترعرع فيه . كما يشعر بتعلق نحو أهل ذلك المحل ونحو جميع الناس الذيـــن عايشـــهم وعاشرهم وألفهم في صغره وصباه . إن هذه الصلة تظهر نفســـها حينما يغترب المرء عن مسقط رأسه ومسرح صباه . فالإنسان يرتبط بموطـــنه وأهلـــه بـــروابط معنوية كثيرة ومتنوعة . فإن كل جزء من أجزاء حـــياته ، يتعلق بزاوية من زوايا بيته وبلدته . ولهذا نجد أن البلد التي تكون مسقط رأس الإنسان ومرباه تشغل مكانة خاصة في نفسه ، بمناظرها وعاداتها ولهجاتها .

إن حب الوطن المسلم يشبه حب الموطن ، وحب الأمة المسلمة يماثل حب الأهل ، وحب الوطن إنما يتولد مع توسع دائرة حب الموطن ، كما أن حب الأمة المسلمة إنما يتولد من توسع نطاق حب الأهل . فإن الإنسان ينظر إلى موطنه كجزء من الوطن ، كما ينظر إلى أهله وأهل بلدته كفرع من المواطنين . ويحب وطنه ومواطنيه ، كما يحب بلدته وأهل بيته ، ويفتخر بأمته المسلمة ووطنه ، كما يفتخر ببلدته وبأهله وبذويه .

الوطن هو عش الإنسان الذي فيه درج ، ومنه خرج ، ومجمع أسرته ، وملتقى إخوانه وأحبائه في الله . وهو البلد الذي نشأته تربته وغذاؤه وهواؤه ، ورباه نسيمه ، قال أبو عمر بن العلاء[1] : (مما يدل على حرية الرجل وكرم غريزته حنيفه أي وطنه ، وتشوقه إلى مقدم إخوانه ، وبكاؤه على ما مضى من زمانه . والكريم يحن إلى أحبابه كما يحن الأسد إلى غابه ، ويشتاق اللبيب إلى وطنه كما يشتاق النجيب إلى عطنه ، فلا يؤثر الحر على بلده بلدًا[2] ، ولا يصير عنه أبدًا) .

قال الشاعر :

وأول أرض مس جلدي ترابها بلاد بها نيطت على تمائمي

وقال آخر :

بلد صحبت بها الشبيبة والصبا ولبست ثوب العيش وهو جديد

---

(١) أستاذ الأصمعي ، عد إمامًا للغة والنحو وقراءة القرآن وإليه تنسب إحدى القراءات السبع ، كما كان راوية للغة والشعر عن الأعراب .

(٢) تعليق : إلا إن فسدت فإن المسلم قد يهاجر من بلده إذا فسدت إلى البلاد الصالحة كما فعل النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم أجمعين عملاً بقوله تعالى : ﴿ **ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها** ﴾ .

فـــإذا تمـــثل فـــي الضمير رأيته وعلـــيه أثـــواب الشـــباب تمـــيد

وكـــانوا يتشـــوقون إلـــى أوطانهم ، ولا يفهمون العلة في ذلك ،حتى أوضحها ابن الرومي[1] في قصيدة لسليمان بن عبد الله بن طاهر يستعديه على رجل من التجار ، أجبره على بيع داره فقال :

ولـــي وطـــن آليـــت أن لا أبيعه وأن لا أرى غيري له الدهر مالكا
عمـــرت يـــه شرخ الشباب ونعمة بصـــحبة قوم أصبحوا في ظلالكما
وحبـــب أوطـــان الـــرجال إلـــيهم مـــآرب قضـــاها الشـــباب هنالكا
إذا ذكـــروا أوطـــانهم ذكـــرتهم عهـــود الصـــبا فحـــنوا لذلـــك
فقـــد الفتـــته الـــنفس حـــتى كأنه لهـــا جســـد أن بـــأن عودر هالكا

وقال من تحير في الحل والارتحال :

وبقيـــت بيـــن عزيمتيـــن كلاهما أمضـــي وأنفـــذ مـــن شباة سنان
هـــمُ يشـــوقني إلـــى طلب العلى وهـــوى يشـــوقني إلـــى الأوطان

وقـــد جـــرت العادة أن البعيد عن الوطن . الذي قضى فيه جزءًا من شـــبابه ، يتشوق إليه ، سواء كان من أهل البدو أو من أهل الحضر . من كل من بعد منهم عن بلده ، وطال مقامهم بغيره .

وقـــد اقتضت حكمة الملك القادر الواحد أن أبناء الوطن دائمًا متحدون في اللسان . والإسلام وضع الشريعة التي تنظم علاقتهم بين بعضهم البعض ، ولتنظيم علاقة الفرد مع ربه . فإذا بهذه الشريعة قوية أمتهم ونصرهم الله على أعدائهم ، وأدوا الرسالة المكلفون بها .

---

(١) ابن الرومي ، شاعر مشهور تميز بالتشائم والتطير ، وشعره جيد في رقته وعذوبته .

ثـــم إن ابـــن الوطـــن المتأصل به ، أو المنتجع إليه ، الذي توطن به واتخذه وطنًا ينسب إليه ، تارة إلى اسمه : « سعودي » أو إلى الوطن فيقال : « وطنـــي » ، ومعنى ذلك أنه يتمتع بحق بلده . فانقياده لتعاليم الدين الإسلامي ولأصول بلده يستلزم ضمنًا ضمان وطنه له التمتع بالحقوق المدنية ، والتميز بمزاياها ، فهو لدينه ووطنه بمنزلة أحد أعضاء البدن ، وهذه أعظم المزايا .

فالوطني المسلم المخلص في حب الوطن يفدي دينه وطنه بجميع منافع نفســـه ، ويخدمـــه ببذل جميع ما يملك ، ويفديه بروحه ، ويدفع عنه كل من تعـــرض له بضرر . فينبغي أن تكون نية أبناء الوطن دائمًا متوجهة في حق ديـــنهم ووطـــنهم إلـــى الفضـــيلة والشرف والتمسك بتعاليم الدين الإسلامي الحنـــيف ، ولا يرتكـــبون شيئًا مما يخل بحقوق أوطانهم وإخوانهم ودينهم ، فـــيكون مـــيلهم إلى ما فيه النفع والصلاح . كما أن الوطن نفسه الذي يطبق تعالـــيم الإســـلام يحمي عن ابنه جميع ما يضره ، لما فيه من هذه الصفات . فحـــب الأوطـــان وجلـــب المصالح العامة للإخوان من الصفات الجميلة التي تتمكن من كل واحد منهم في جميع أوقاته مدة حياته . مما أسعد الإنسان الذي يميل بطبعه لإبعاد الشر عن الإسلام ووطنه ولو بأضرار نفسه .

فصـــفة الوطنية لا تستدعي فقط أن يطلب الإنسان حقوقه الواجبة له على الوطن ، بل يجب أن يؤدي الحقوق التي للوطن عليه . فإذا لم يوف أحد مـــن أبـــناء الوطن بحقوق دينه ووطنه ضاعت حقوقه المدنية التي يستحقها عليهما .

أعداء الدين والوطن والوطنية

الإســـلام والوطنـــية هي من أهم وأقوى للعقيدة وللنزعات الاجتماعية المتأصـــلة فـــي النفوس المؤمنة . ومع هذا فإنها لا تسلم من أعداء وخصوم تســـعى إلـــى كســـر قوتها وتأثيرها . وأنه لا يقصد بقول « أعداء وخصوم » لأشخاص بل المقصود « الميول والنزعات » .

إن أهـــم وأعـــم الميول النفسية التي تعارض الدين والانتماء للوطن « الوطنـــية » وتعاديهـــا هـــي : « الأنانية » لأنها توجه النفوس نحو المصالح والملذات الذاتية ، وتحملها على تقديم هذه المصالح والملذات على كل شيء . على حين أن التمسك بتعاليم الإسلام والانتماء للوطن « الوطنية » على عكس ذلك تدعو إلى « الإيثار » و « التضحية » في سبيل رفع راية الإسلام والتمسك بتعاليمه والانتماء للوطن . إنها تطلب من كل شخص أن يحب دينه ووطنه ، ويخـــدم أمـــته بكل ما أوتي من قوة ، وأن يضحى بالشيء الكثير من راحته وهناءته في هذا السبيل حتى لو تطلب منه أن يوصل هذه التضحية إلى درجة « بذل النفس والحياة » عند اللزوم في سبيل دينه ووطنه .

إن الأنانـــية تعمـــل على الدوام عملاً معاكسًا لدواعي الدين والوطن والانـــتماء إلـــيهما ، والتـــي لا تستطيع أن تنمو وتقوى دون أن نتغلب على الأنانـــية المعادية لها . والتي تعادي جميع الفضائل والنزعات الأخلاقية على اختلاف أنواعها .

غـــير أن هـــناك بعض النزعات التي تعادي الانتماء للدين وللوطن ، ومنشـــأ هـــذه الـــنزعات المعادية تتلخص في : « الآراء والمذاهب الفلسفية والاجتماعـــية » . والتـــي تعتـــبر أن الانتماء للدين وللوطن « الوطنية » من النزعات البالية التي يجب نبذها والتخلص منها .

يشـــير د/محمـــد الحسان في كتابه « المواطنة وتطبيقاتها في المملكة العربـــية السعودية » من أن فكرة المواطنة في المذهب الاشتراكي تقوم على إثارة مجموعة من الانتقادات للمذهب الفردي . وذلك أن التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي أعقبت الثورة الصناعية في النظم الرأسمالية أدت إلى حفز مجموعـــة مـــن المفكرين إلى مناقشة فكرة المواطنة من خلال صراع القوى داخـــل المجـــتمع . ففي ظل الرأسمالية التي تتضارب فيها المصالح الخاصة لرجال الأعمال مع المصالح الخاصة للعمال ، جاء التساؤل : هل يمكن القول أن تلك المصالح المتضاربة يمكن أن توصل لتحقيق الصالح العام للمجتمع ، وهـــل تركـــيز الـــثروات في يد فئة قليلة من المواطنين يوجهونها توجيهًا لا اكتراث فيه بمصالح الأغلبية من المجتمع تطبيقًا لشعار الحرية يمكن أن يحقق للمجتمع العدالة الاجتماعية .

وعلى أساس هذه الانتقادات للمذهب الفردي ، بدأ المذهب الاشتراكي من الأفكار التي طرحها كل من « شارل فرانسوا فورييه ، وروبرت أوين » والتي عنيا فيها بالبحث عن تصور لمجتمع جديد يحقق منفعة الغالبية العظمى من الناس .

وقد ظلت هذه الأفكار تتطور حتى جاء « كارل ماركس » الذي يعتبر المنظر الحقيقي للمذهب الاشتراكي ، الذي عرف فيما بعد بالاشتراكية العالمية أو مذهب الشيوعية الماركسية . وبني أراءه على فكرة مؤداها أن مجرى التطور التاريخي يتكيف بصورة حتمية بفعل القوى الاقتصادية ، أكثر مما يتكيف بآراء الناس فيما يجب أن يحدث . وكما جاء في نظريته ، يعتمد النظام الاشتراكي على : القضاء على كافة مظاهرة الملكية الفردية ، ووضع كافة مصادر الإنتاجية تحت يد الدولة وأشرافها على الإنتاج ، وتحديد دخول الأفراد ، وإلحاق كل أفراد المجتمع بخدمة الدولة .

والواقع أن النظام الاشتراكي كما رسمه « ماركس »يتضمن العديد من المغالطات . كما أن التجربة العلمية أثبتت أنه أكثر فسادًا واستبدادًا من النظام الرأسمالي ويمكن التدليل على ذلك بالآتي :

١- كان «ماركس »**يعتقد أن الثورة الاشتراكية ستتحول يومًا إلى ثورة عالمية ، تنمحي فيها الخصائص القومية** . وقد أثبتت الأحداث مدى خيبة هذا الظن .

٢- **كان يعتقد أن القضاء على الملكية الفردية ، وسيطرة الدولة على وسائل الإنتاج كفيل بمحو الطبقية** . وقد دلت التجارب على أن هذا الاعتقاد لا يعد أن يكون نظريًا ، فقد اختفت الطبقات الرأسمالية وحلت محلها طبقة أخطر من سابقتها ، وهم الحكام أعضاء الحزب الشيوعي .

٣- كـــان يعتقد أن النظام الاشتراكي سوف يكفل للشعب حرية الفكر والـــرأي والتعبير ، وهذه الحريات الأساسية التي تدخل فيها حرية العقيدة ، لم يكن لها أي وجود .

٤- الادعـــاء بـــأن الديـــن أفيون الشعوب ، ومحاولته إحلال عقيدة الكفاح في نفوس العمال بدلاً من الإيمان بالله . ولسنا في حاجة للتدليل على افتراء هذه المغالطة وتجنيها على المقدسات الإنسانية .

وبـــرغم الازدهار الوقتي الذي لقيه هذا المذهب ، فقد لقي في النهاية الطبيعية التي يمكن أن يلقاها أي مذهب بهذا القدر من الفساد الفكري ، ويكاد يكون قد أجتث تمامًا من العالم فكرًا وتطبيقًا[1] .

منذ قيام المجتمعات الإنسانية على وجه الأرض والعالم مبتلى بدعوات هدامـــة ومـــنها الدعـــوة الاشتراكية والإلحاد والعلمنة وهي دعوات باطنية . والباطنـــية هي أم الخبائث التي بسبب مكرها تصدعت الأمم والشعوب ، فقد ولـــدت الباطنية في نفس مخلوق امتلأ قلبه بالحقد على الإنسانية والنقمة على الفضائل والأخلاق . وبنى مذهبه على نكران الغيب والإيمان بالمادة ، وهدم الفضائل الإنسانية كلها ، وإباحة الحرمات جمعيها . وزعمت أن الرسل ادعوا النـــبوة طمعًـــا في حكم العامة ورغبة في السلطان . وأن الأديان ما هي إلا صـــدى الحاجـــة ووليد الضرورة وأنكرت كل قيد من قيود العقيدة والخلق . وسمت الفوضى حرية ، وجعلت الخلاعة والمجون والفسق والفجور والإباحية

---

(١) المواطـــنة وتطبـــيقاتها فـــي المملكة العربية السعودية ، د/محمد بن إبراهيم الحسان ، جـــ١ ص٥٦ - ٦٠ .

شـــريعة متـــبعة . وجعلت كل ممنوع مباحًا وكل حرام حلالاً ، وكل حريز مشاعًا ، وفصمت عرى الزوجية ، وقضت على عاطفة الأمومة والأبوة .

إن الاشـــتراكية المـــتفرقة عن العلمانية غريبة من الأديان السماوية ، غريبة عن شريعة الإسلام ومبادئها السمحة وعن أحكامه وتعاليمه ، والتاريخ الإســـلامي على مر العصور والأزمان لم يعرف العقيدة الاشتراكية . ويعتقد المؤرخـــون أن النزعة الشيوعية التي سماها « ماركس » الاشتراكية العالمية تعـــود أصولها إلى أغوار الماضي البعيد . وحين ظهرت الفرق الباطنية في القرن الهجري الثالث ظهرت هذه النزعة الاشتراكية عند معظم هذه الفرق ، واشـــتملت علـــى النواحـــي الاقتصادية والاجتماعية والأمور الإلحادية . إن الإلحـــاد مـــن المبادئ التي تقوم عليها الاشتراكية ، فالاشتراكيون يرفضون وجود الدين كما يحاربون العاطفة الدينية[1] .

إن العلمانية تعني الفصل بين السياسة والدين ، وإنها نظام من المبادئ والتطبـــيقات يـــرفض كـــل صـــور من صور الإيمان الديني والعبادة الدينية وبـــالأخص في التنظيم العام . وهي التي تدفع المفكرين للتفتيش عن الحلول العلمـــية للخـــلاص منها لعزل قضايا الدين عن السياسة ومشكلاتها . وأن لا يكون الإسلام دين الدولة ، أو الشريعة الإسلامية مصدرًا أساسيًا من مصادر التشـــريع ، وأن يضـــمن حياد الدولة تجاه الأديان . وهناك فيلسوف علماني للأسف أنه مسلم يقول : (إن الدين كما يدخل في صميم حياتنا وكما يؤثر في تكويـــنا الفكري والنفسي يتعارض مع العلم ومع المعرفة العلمية قلبًا وقالبًا ،

---

(١) الإسلام والحضارة ، مطبع النونو ، ص١٤٣ – ١٤٥ .

روحًـــا ونصًا ، العلم والعصرية يعنيان العلمانية وفصل الدين عن الدولة) . وفيلســـوف آخـــر علماني للأسف أنه مسلم يقول : (إننا نفضل الحرب ضد الـــدول العربـــية الرجعـــية علـــى الحرب ضد إسرائيل لأن العدو هو الدين الإسلامي وليست إسرائيل) .

إن جمـــيع الفـــئات المضللة معادية سواء كانت مسلمة أو غير مسلمة لأنها في عملها ومبادئها المشبوهة تعمل على تمزيق الشعوب الإسلامية وبث الفتـــنة صـــراحة بين الأمة الإسلامية بهدف سياسي خسيس للنيل من العقيدة الســـماوية التـــي أنزلـــت على سيد المرسلين وخاتم الأنبياء ﷺ . إن الحقيقة التاريخـــية التـــي لا تقبل الإنكار أو الشك أن محمدًا ﷺ بعد تشريفه بالنبوة لم يقصـــر عمله على تبليغ القرآن من عند الله وكفى ، بل كان يود حركة عامة شاملة نتج عنها قيام مجتمع مسلم .

لذلـــك أن العلمانية والاشتراكية في الحقيقة هي أسوأ شكل من أشكال الظلـــم الاجتماعـــي . فـــأي عاقل هذا الذي يرى العدالة الاجتماعية في قيام شخص أو بضعة أشخاص تأليف فلسفة اجتماعية وفرضها بالقوة على سكان دولـــة بأكملهـــا . إن ما جاء في القرآن الكريم لو طبق فسوف تتحقق عدالة اجتماعـــية كاملـــة لـــيس بعدها عدالة ، ولو تم تنفيذها فلن يستطيع أحد إيقاع المسلمين في خدعة استيراد « الاشتراكية والعلمانية » من الخارج والزعم بأنها عين الإسلام[1] .

---

(١) المرجع السابق ، ص١٤٩ – ١٥٢ وص١٥٧ .

لقــد ذكر الأستاذ فهد العريفي من أن الوطنية الإسلامية عمل وليست قولاً يتردد في المجالس وعلى أصوات الطبول . الوطنية الإسلامية تفان في حــب الوطــن الإسلامي ، وبذل النفوس رخيصة في سبيل صيانته وحمايته والدفــاع عنه . الوطنية عدالة بين أهله ، لا تطفيف كيل ولا وزن . الوطنية أمانة في عنق وقلب وضمير كل مواطن والتزام صادق .

لمصــلحة الجميع الوطنية شرف يحافظ به كل مواطن على ما أؤتمن عليه من مال عام ومال خاص ، دون أن يوهم النفس الأمارة بالسوء بأن مال الدولة مال مشاع يحق له أن يستغله إذا كان أداةً من أدوات الاستخدام أو مالاً منقولاً وغير منقول فيأكله بكل شدقيه .

هــذه الدعوات ليست جديدة فقد أطلقها ذوو النبل والشرف من كتابنا وأدبائنا وليست وليدة على أسماعنا. لكن القلة منا يصاب بالصمم عند سماعها، والــبعض الآخــر السيئ منا يصفها بالمثالية التي يتبعها الهائمون والحالمون الذيــن يوهمــون الناس إنهم نزهاء ، وبعيدون عن دروب « الدنيا » ومصادر الضــرر ، والله أعلم بما تخفي النفوس . الوطنية وتشمل ترشيد صرف الماء والكهــرباء وصيانة الأرض والنبات والهواء من العبث والضرر . والوطنية هــي الــتعاون لخير الجميع ودفع الضرر عن الجميع ، وهي تكاتف وتماسك وتعــاون علــى البر والتقوى والخير والمحبة والاستقرار . الوطنية هي نبذ الفــرقة والشــائعات الضارة ، وتوفير أجواء الوئام بين الأخ وأخيه ، والجار وجاره ، والمواطن مع مواطنيه .

الســـارق عدو نفسه وعدو الوطن ، والظالم عدو نفسه وعدو الوطن ، والمحـــتال في زمرة الأعداء والمحتالين ، والمنافق عدو نفسه وعدو الوطن ، والدجال عدو نفسه وعدو الوطن ، والذين يقلبون الحق إلى باطل والباطل حقًا هم أعداء للوطن والأمة .

الوطنـــية ليســـت أحاديث تروى ولا قصصًا تدَّون ، وإنما هي أفعال ومواقف . في العهود الحديثة بات الحديث عنها ضربًا من الخيال ، ونوعًا من الكلام الممجوج عند بعض من اختطوا طريقهم ، ونهجوا منهجًا آخر لا يتفق مع متطلبات الوطن ومستلزمات الوطنية . وبات هذا البعض يرى أن الحكمة والوعي والفهم القدرة على الامتلاك ، وأن « العاجز من لا يستبد » ، والقاصر من يعجز عن الحصول على ما يريد بالطرق الملتوية ، والواعي من « يلعب بالبيضة والحجر » دون أن تتكسر .

أمَّا من يتعفف عن مال غيره ، ويبتعد عن أعراض الناس ، ويتحاشى الغـــش ، ويبتعد عن الكذب والنفاق والحيلة ومواطيء الزلل ومواقع الخطل فهـــذا في نظرهم ضعيف مسكين يستحق العطف ويستحق الصدقة . فسبحان مقلب القلوب والأبصار ومنه الهداية نستمدها وننشدها[1] .

---

(١) حـــدود المحبة ، فهد العريفي ، ص١٥ مجلة اليمامة العدد ١٥٦٦ ، السبت ١٨ ربيع الآخر ١٤٢٠هـــ .

تمدن الوطن

لا شك أن رسالة الرسل بالشرائع هي أصل التمدن الحقيقي الذي يعتد بـــه ويلتفـــت إليه . وإن الذي جاء به الإسلام من الأصول والأحكام هو الذي مدن بلاد الدنيا على الإطلاق ، وانبعثت أنوار الهدى في سائر الآفاق .

إن أصـــول الفقـــه هو استخراج الأحكام الفقهية ودلالاتها التفصيلية . ونســـتطيع أن نقـــول أن القوانيـــن الوضعية الحديثة استفادت في الكثير من قواعدهـــا مـــن كلام الأصول . وأن جميع الاستنباطات العقلية التي وصلت عقول باقي الأمم المتمدنة وجعلوها أساسًا لوضع قوانين تمدنهم .

فما يسمى عندنا بأصول الفقه يسمى ما يشبه عندهم بالحقوق الطبيعية أو النوامـــيس الفطـــرية ، وهـــي عبارة عن قواعد عقلية ، تحسينًا وتقبيحًا ، يؤسســـون علـــيها أحكـــامهم المدنية . وما نسميه بفروع الفقه يسمى عندهم بالحقوق والأحكام المدنية ، وما نسميه بالعدل والإحسان يعبرون عنه بالحرية والتسوية . وما يتمسك به أهل الإسلام من محبة الدين والزود عنه وحمايته ، ممـــا يفضـــلون به عن سائر الأمم في القوة والمنعة ، يسمونه محبة الوطن . على أنه عندنا معشر الإسلام حماية الدين مجمع الأركان . فالوطن هو جامعة الدين والوطنية فحمايته واجبة على بنيه ، وحب الوطن : ((**شعبة من شعب الإيمان**))[1] .

---

(١) حديث ضعيف ، إلا أن ما اشتمل عليه كلام جميل .

وفوائد التمدن كثيرة ، وعليها مدار جميع العلوم المعاشية والمعادية . ثـــم إن من أسباب التمدن في الدنيا : التمسك بتعاليم الدين الحنيف ثم ممارسة العلـــوم والمعارف . ومما أعان على سعة دائرة التمدن حرية الرأي والتعبير للعلمـــاء وأصـــحاب المعـــارف في تدوين الكتب الشرعية والحكمية والأدبية والسياسية . بشرط عدم ما يوجب الاختلال في الحكومة بسلوك سبيل الوسط بغـــير تفـــريط ولا شـــطط . ومـــن أعظـــم معين على التمدن توفر وسائل المواصلات على اختلاف أنواعها وكذا السياحة فإنها عادت على جميع ممالك الدنـــيا بالـــثروة والغنى . وكانت السياحة في الأحقاب السالفة لعرب الإسلام لاستكشـــاف البلدان وإدخال أهلها في دين خير الأنام ، فاستكشفوا من البرور والبحور مالا يحصى ، ومدنوا من أهلها مالا يستقصى .

وفي الحرية العمومية التسوية بين المواطنين ، فالحرية من حيث هي رخصـــة العمـــل المباح ، من دون مانع غير مباح ، ولا معارض محظور . ويتصف كل فرد من أفراد الوطن بأنه حر ، يباح له أن ينتقل من دار إلى دار ومن جهة إلى جهة ، بدون مضايقة مضايق ولا إكراه مكره . وأن يتصرف كمـــا يشـــاء فـــي نفسه ووقته وشغله ، فلا يمنعه من ذلك إلا المانع المحدود بالشرع أو السياسة ، مما تستدعيه أصول مملكته العادلة . وأن لا يضيق عليه فـــي التصـــرف في ماله كما يشاء إلا بأحكام الشرع الإسلامي ، وإن لا يكتم رأيـــه فـــي شيء ، بشرط أن لا تخل ما يقوله أو يكتبه بنظام دولته . وتنقسم الحرية إلى خمسة أقسام :

١- الحرية الطبيعية :

هي التي خلقت مع الإنسان ، وانطبع عليها ، فلا طاقة لقوته البشرية علـــى دفعها بدون أن يعد دافعها ظالمًا . فالأكل والشرب والمشي مما يشترك فـــيه جميع الإخوان ولا يستغنون عنه ، مما لا ضرر فيه على الإنسان نفسه ولا على إخوانه . فلا يجوز مثلاً : التخمة ، ولا أكل السموم ، ولا أكل طعام الغير بدون إذنه .

٢- الحرية السلوكية :

التـــي هـــي حســـن الســـلوك ومكارم الأخلاق التي يدعو إليها ديننا الحنـــيف ، هي الوصف اللازم لكل فرد من أفراد الوطن . المستنتج من حكم العقل ، بما تقتضيه ذمة الإنسان وتطمئن إليه نفسه في سلوكه في نفسه وحسن أخلاقه في معاملة غيره .

٣- الحرية الدينية :

بشرط أن لا تخرج عن أصل الدين الإسلامي وتعاليمه السمحة .

٤- الحرية المدنية :

هي حقوق المواطنين الموجودين في وطنهم بعضهم على بعض ، وأن كـــل فـــرد من أفراد الوطن ضمن للباقين أن يساعدهم قدر المستطاع بما لا يخـــالف شـــريعة الإســـلام وتعالـــيمه ، وبشرط أن لا يتعدى حدود الأحكام والتعليمات المتبعة .

obeikandl.com

٥- الحرية السياسية :

هـــي تأميـــن الدولـــة لكـــل واحد من مواطنيها على أملاكه الشرعية المرعـــية ، وإجـــراء حريته الطبيعية . فبهذا يباح لكل فرد أن يتصرف فيما يملكـــه جمـــيع التصرفات الشرعية . فكان الحكومة بهذا ضمنت للإنسان أن يسعد فيها مادام مجتنبًا لأضرار إخوانه متبعًا لشرعه الإسلامي .

فالحرية بهذه المعنى : هي الوسيلة العظمى في إسعاد المواطنين ، في حبهم لأوطانهم . وبالجملة حرية المواطنين منحصرة في كونهم لهم الحق في أن يفعلوا المأذون شرعًا ، وأن لا يكرهوا على فعل المحظور . ومتى كانت حـــرية المواطنيـــن مصحوبة بعدل الملوك ، المتبعين للحق ، الذين يمزجون اللين بالخشونة للإهابة . حتى تستقيم أمور الدولة .

وحيـــث أن الحـــرية منطـــبعة فـــي قلب الإنسان من أصل الفطرة ، واقتضـــت الحكمة الإلهية عدم تحقيره وذله ، وكرامته على جميع من عداه ، فيجـــب أن يصرف حريته لما ينفع وطنه وإخوانه ودولته . فإذا كان الإنسان يكلف بنفع وطنه فلا يعد تكليف الحكومة له بجهاد الأعداء ، من التعدي على حقوقـــه ، فـــإن هذا من واجباته لدينه ثم وطنه . حيث إن العدو الذي يعتدي بالإغارة على حدود الوطن يجب على أهلها قتاله وصده عنها ، وما ذاك في الحقيقة إلا لحماية دينه وعرضه .

وأعظم حرية في المملكة المتمدنة حرية الزراعة والصناعة والتجارة خصوصـــا بعـــد اســـتكمال الأهلية فيها . وذلك بعد تقديم التربية لأن تهذيب

المواطنيــن وتحســين أحوالهم يكسب عقولهم الرشد والتصرف في العلميات المتسعة . قال بعض الحكماء : (إن سمحتم لي بتحسين التربية ألزمت نفسي لكــم بإصلاح أحوال العالم بأسره) . فإن العقول البشرية المسلمة متى بلغت مبلغًا في فهم أمور دينها وأمورها المعاشية اتسعت في المعاملات ، وتشبثت باختراع ما يعين على المنافع لوطنها .

المساواة :

وأمــا التسوية بين المواطنين ، فهي صفة طبيعية في الإنسان ، تجعله فــي جمــيع الحقــوق البلدية كإخوانه ، وهي جامعة للحرية المدنية والحرية الملكــية . وذلك لأن جميع الناس مشتركون في ذواتهم وصفاتهم ، فكل منهم ذو عينين وأذنين ويدين وشم وذوق ولمس ، وكل منهم محتاج إلى المعاش . فــبهذا كانوا جمعيًا في مادة الحياة الدنيا على حد سواء ، ولهم حق واحد في اســتعمال المــواد التــي تصون حياتهم ، فهم مستوون في ذلك ، لا رجحان لبعضهم على بعض في ميزان المعيشة . ولكن هذا التساوي بينهم أمرًا نسبيًا لا حقيقيًا ، لأن الحكمة الإلهية ميزت بعضهم على بعض أزلاً ، حيث منحت البعض أوصافًا جليلة لم تمنحها للبعض الآخر .

فبهذا تباينوا في الصفات المعنوية ، بل وفي الصفات الطبيعية ، كقوة الــبدن وضعفه . ومع أن الله تعالى فضل بعضهم على بعض في الرزق فقد جعلهــم في الأحكام مستوين . كما أمرت به ودلت عليه سائر الكتب المنزلة على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام . فليس للتسوية معنى آخر إلا اشتراكهم في الأحكام بأن يكونوا فيها على حد سواء . فحيث اشتركوا واستووا في الصفات

الطبيعية فلا يمكن أن ترفع هذه التسوية في الأحكام الوضعية . فمن حيث ثبت أنهم مستوون في الحقوق أنتج ذلك أنهم إذا وقعوا جميعًا في خطر عام وجب علـــى سائرهم أن يتعاونوا في إزالة هذا الخطر ، لما في إزالته من منفعتهم الدينية . فإذا وقع لوطنهم حادث وجب عليهم أن يصرفوا النظر عن امتيازاتهم المعـــنوية ، ويـــرجعوا إلـــى صفة التسوية ، وينسوا كل مزية . فبهذا تكون التســـوية ملازمـــة للحرية عند إنطواء راية الحرب . وينضم إلى ذلك صفة ثالـــثة : هـــي المحافظة على بقاء الهدوء والراحة العامة في وطنهم ، وحسم عرق الفتن .

فالتسوية في الحقوق ليست إلا عبارة عن تمكن الإنسان شرعًا من فعل أو نيل أو منع جميع ما يمكن لسواه من إخوانه أن يفعله أو يناله أو يمنع منه شـــرعًا . فكل إنسان يتصرف في أملاكه وحقوقه تصرفًا كتصرف الآخرين أيامًـــا كانـــت فـــي المملكة صفته ، شرفًا أو ضعة ، فهو مساوي للجميع في تصـــرفاتهم . ومـــن البديهي أن استواء الإنسان في حقوقه مع غيره يستلزم اســـتواءه مـــع ذلـــك الغير في الواجبات التي تجب على الناس بعضهم على بعـــض ، لأن التســـوية في الحقوق ملازمة للتسوية في الواجبات . فكما أن الإنسان يطلب أن يستوفي ما هو له فعليه أن يؤدي ما عليه .

العدل :

فمـــن أدى واجـــباته واستوفى حقه من غيره ، وكان دأبه ذلك اتصف بصفة العدل . والعدل صفة تبعث الإنسان على الاستقامة في أقواله وأفعاله ، وأن ينتصـــف لنفســـه ولغيره ، فأكثر الفضائل متفرع منه ، مثل : الشفقة ،

والمـــروءة ، والـــتقوى ، ومحبة الوطن ، وخلوص القلب ، وصفاء الباطن ، والكـــرم ، وتهذيـــب الأخلاق ، والتواضع ، وما ماثل ذلك ، فهذه كلها نتائج العـــدل . ثم إن الحديث الشريف عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : **((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))**[1] . يتضمن الدرجة العليا في العدل[2] .

---

(١) التاج الجامع للأصول ، منصور علي ناصف ، جـــ١ ص٢٦ ، رواه الخمسة إلا أبا داود .

(٢) الأعمال الكاملة ، للطهطاوي ، ص٤٦٩ – ٤٧٧ ، مع حذف وإضافة لبعض الآراء .

obeikandl.com

obeikandl.com

القومية

القومية مصطلح شائع الاستعمال ، ولكنه معقد في تركيبه ونشأته لأنه يستخدم بمفاهيم كثيرة ومتعددة . وقد حاول الكثير بصياغته تعريف القومية ، والإلمام بأكبر قدر من دلالاتها ، فالبعض أشار إلى أن القومية هي حالة عقلية يشعر فيها الفرد بأن ولاءه الأسمى واجب للدولة . وهناك من قال إن القومية هي الإحساس بالانتماء إلى جماعة تملك دولة موحدة في ظل ظروف تاريخية تمت إلى مرحلة اجتماعية معينة . أو لجماعة تحاول التعبير عن ذاتها عن طريق إنشاء مثل هذه الدولة ، وهناك من يحاول أن يعرف القومية بأنها « الانتماء إلى أمة » . وقد ظهرت خلافات كثيرة حول مدلول القومية مثل : « التطلعات القومية ، والشخصية القومية ، والوعي القومي ، والطابع القومي ».

وهناك تقسيمات أخرى يفرق بعضها بين « العوامل المادية » وهي إما وحدة الأرض أو الوحدة الاقتصادية ، « العوامل المعنوية » ومنها العقائد والعادات والمشاعر ووحدة التاريخ والثقافة ، « العوامل الموضوعية » التي يجب أن تتوفر لتكوين القومية وهي : « اللغة » التي يعتبرها الكثيرون أساس القومية ، « الأصل المشترك » وهي نظرية وحدة الجنس وتحتل مكانًا بين نظريات القوميات ، « الإقليم » وهي وجود إقليم معين له حدوده المعروفة لتمارس الدولة سلطاتها بداخله ، « الدين »له دور كبير على نمو المشاعر القومية ، « التاريخ المشترك » من أهم العوامل التي تؤسس الأمم .

وعـــندما اعتنقـــت الشعوب العربية الإسلام أصبح لديها كل مقومات القومـــية العربية . بحيث كان من السهل أن تتجمع كل هذه الدول تحت لواء قومـــي بكـــل مـــا يـــتوفر لديـــه من حضارة واحدة ولغة ودين واحد وثقافة مشتركة[1] .

القومـــية العربية : حركة سياسية فكرية متعصبة ، تدعو إلى تمجيد العرب ، وإقامة دولة موحدة لهم ، على أساس من رابطة الدم والقربى واللغة والتاريخ ، وإحلالها محل رابطة الدين . وهي صدى للفكر القومي الذي سبق أن ظهر في أوروبا .

لقد ظهرت بدايات الفكر القومي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين متمثلة في حركة سرية تؤلف من أجلها الجمعيات والخلايا في عاصمة الخلافة العثمانية ، ثم في حركة سرية في عاصمة الخلافة العثمانية ، ثـــم في حركة علنية في جمعيات أدبية تتخذ من دمشق وبيروت مقرًا لها . ثم فـــي حركة سياسية واضحة المعالم في المؤتمر العربي الذي عقد في باريس ســـنة « ١٩١٢م » . وأن أهـــم الجمعيات ذات التوجه القومي حسب التسلسل التاريخي وتتلخص في :

١- **الجمعـــية الســـورية :** أســـسها نصـــارى منهم بطرس البستاني وناصف اليازجي سنة « ١٨٤٧م » في دمشق .

٢- **الجمعية السورية في بيروت :** أسسها نصارى منهم سليم البستاني ومنيف خوري سنة « ١٨٦٨م » .

---

(١) الموسوعة السياسية المعاصرة ، نبيله داود ، ص٣٦ – ٣٨ .

٣- **الجمعـية العربية السرية :** ظهرت سنة « ١٨٧٥م » ولها فروع في دمشق وطرابلس وصيدا .

٤- **جمعـية حقـوق الملة العربية :** ظهرت سنة « ١٨٨١م » وهي تهدف إلى وحدة المسلمين والمسيحيين .

٥- **جمعـية رابطـة الوطـن العربـي :** أسسها نجيب عزوري سنة « ٩٠٤م » بباريس وألف كتاب « يقظة العرب » .

٦- **جمعـية الوطـن العربـي :** « أسسـها خير الله خير الله » سنة « ٩٠٥م » بـباريس ونشـر أول كـتاب قومـي بعـنوان « الحركة الوطنية العربية » .

٧- **الجمعـية القحطانية :** ظهرت سنة « ١٩٠٩م » وهي جمعية من مؤسسها خليل حماد المصري .

٨- **الجمعـية العربـية الفتاة :** أسسها في باريس طلاب عرب منهم البعلبكي سنة « ١٩١١م » .

٩- **حـزب العهـد :** أسـس سنة « ١٩١٢م » أنشأه ضباط عرب في الجيش العثماني .

هذا وقد ظلت الدعوة إلى القومية العربية محصورة في نطاق الأقليات الدينـية غـير المسـلمة ، وفي عدد محدود من أبناء المسلمين الذين تأثروا بفكـرتها . ولـم تصـبح تيارًا شعبيًا عامًا إلا حين تبنى الدعوة إليها الرئيس المصـري الراحل جمال عبد الناصر حين سخر لها أجهزة إعلامه وإمكانات

دولـــته . ويعد « ساطع الحصري »رائد القومية العربية وأهم مفكريها وأشهر دعاتها ، وله مؤلفات تعد الأساس الذي تقوم عليه فكرة القومية العربية ،ويأتي بعده في الأهمية « ميشيل عفلق » .

ويعني الفكر القومي من شأن رابطة القربى والدم على حساب رابطة الديـــن . وإذا كان بعض كتاب القومية العربية يسكتون عن الدين فإن بعضهم الآخر يصر على إبعاده إبعادًا تاماً عن الروابط التي تقوم عليها الأمة . بحجة أن ذلك يمزق الأمة بسبب وجود غير المسلمين فيها .

ويـــرى دعاة الفكر القومي على اختلاف بينهم في ترتيب مقومات هذا الفكـــر أن أهم المقومات التي تقوم عليها القومية العربية هي : « اللغة والدم والـــتاريخ والآلام والآمـــال المشـــتركة » . ويرون أن العرب أمة واحدة لها مقومات الأمة وأنها تعيش على أرض واحدة هي الوطن العربي الواحد الذي يمتد من الخليج إلى المحيط . كما يرون الحدود بين أجزاء الوطن هي حدود طارئـــة ، ينبغـــي أن تزول وينبغي أن يكون للعرب دولة واحدة ، تقوم على أساس من الفكر العلماني .

يدعو الفكر القومي إلى تحرير الإنسان العربي من الخرافات والغيبيات والأديـــان كمـــا يـــزعمون ، وهو يتبنى شعار « الدين لله والوطن للجميع » . والهـــدف مـــن هذا الشعار ، إقصاء الإسلام من أن يكون له وجود فعلي من ناحية ، وجعل أخوة الوطن مقدمة على أخوة الدين من ناحية أخرى . والفكر القومي يرى بأن الأديان والإقليميات والتقاليد المتوارثة عقبات ينبغي التخلص

مـــنها مـــن أجل بناء مستقبل الأمة . ويقرر الفكر القومي أن الوحدة العربية حقيقية أما الوحدة الإسلامية فهي حلم .

كثيرًا ما يتمثل الفكر القومي بقول الشاعر القروي :

هبونـــي عـــبدًا يجعل العرب أمةً وســـيروا بجثماني على دين بَرهَمِ
ســـلام علـــى كفـــرٍ يوحـــد بيننا وأهـــلاً وســـهلاً بعـــده بجهـــنمِ

يقول بعض مفكري القومية العربية : إن العربة هي بيننا نحن العرب المؤمنيـــن العريقيـــن من مسلمين ومسيحيين ، لأنها وجدت قبل الإسلام وقبل المســـيحيين . ويجـــب أن نغـــار عليها كما يغار المسلمون على قرآن النبي والمسيحيون على إنجيل المسيح . وأما عن انتشار وموقع النفوذ فإن كثير من الحكـــام يتـــبارون فـــي ادعـــاء القومـــية وكل منهم يفتخر بأنه رائد القومية العربية[1] .

القومـــية هـــي الشعور الذي يربط بين أفراد الأمة العربية ، فهي أمة واحدة تعيش في وطن واحد هو الوطن العربي ، ويشعر أفرادها بالولاء لهذا الوطن ، والاعتزاز بعروبتهم ، والحرص على سلامة وطنهم الكبير والدفاع عنه . وعلى هذا فالقومية العربية رباط دائم مستمر ، وهي الذي جمع العرب جميعًا في وطنهم منذ مئات السنين . وللقومية العربية جذور عميقة يشعر بها كل عربي ، وهذه الجذور أو الأسس تعتبر من مقومات القومية العربية التي تتلخص في التالي :

---

(١) الموســـوعة الميســـرة فـــي الأديان والمذاهب المعاصرة ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي الرياض ، ص٤٠١ – ٤٠٥.

أولاً : التكامل الجغرافي :

يمتد الوطن العربي بلا انقطاع من المحيط الأطلسي غربًا إلى الخليج العربي شرقًا ، ومن البحر الأبيض المتوسط وجبال طوروس شمالاً إلى المحيط الهندي ووسط إفريقيا جنوبًا . وتبلغ مساحته حوالي (١١,٥) مليون كم^{٢} أي أكبر من مساحة قارة أوروبا أو الولايات المتحدة الأمريكية .

يقع الوطن العربي عند ملتقى ثلاث قارات « آسيا ، إفريقيا ، أوروبا » ويربط هذه القارات كما يربط البحار المتصلة بها ، ويتمتع بموقع ممتاز من العالم ، فهو ممر بحري وجوي وبري عالمي بين القارات الثلاث ، وهو حلقة الوصل بين الشرق والغرب .

فالوطن العربي الكبير تكاد تتشابه الأرض في كل أقطاره ، كما تتصل سواحله المطلة على البحر الأبيض المتوسط من أقصى شمال سوريا إلى أقصى المغرب العربي . وأن أنهاره وصحاريه لا تعتبر عوائق تفصل بين أجزائه وإنما تربط بينهما .

كما تعتبر باديـة الشام امتدادًا لصحراء الجزيرة العربية ، وتمتد الصحراء الغربية في مصر إلى ليبيا وتونس والجزائر ، ويعتبر البحر الأحمر بحيرة عربية . كل هذا جعل الأرض العربية موطنًا للعرب ، لا يستطيع أي جزء منها أن يعيش منفصلاً عن غيره من الأجزاء . ولقد عاش الشعب العربي في هذه المنطقة منذ آلاف السنين ، ولم يعرف حدودًا تقسمها إلا في القرون الأخيرة .

ثانيًا : وحدة اللغة :

اشتراك العرب في لغة واحدة « اللغة العربية » تجعلهم أبناء أمة واحدة تتميز عن الأمم الأخرى . ويكفيهم عز وفخر أنها لغة كتاب الله العزيز « القرآن الكريم » قال الله عز من قائل : ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين** ﴾[1] .

لقد انتشر في أنحاء الوطن العربي الطراز العربي الإسلامي في المساجد والمباني ، وترجم الكثير من كتب الثقافة العربي إلى اللغة اللاتينية ، وكان لها أثر كبير في قيام الحضارة الأوربية الحديثة . ولم تسمى هذه العلوم والفنون بأسماء إقليمية ، وإنما سميت بالآداب العربية ، والفنون العربية ، والعلوم العربية . وسميت هذه الحضارة باسم « الحضارة العربية » ، أي أن العرب لم يعرفوا الإقليمية في إنتاجها ، فحاضرتهم تعبر عن أمة واحدة هي الأمة العربية .

ثالثًا : وحدة المصالح :

العرب كأمة واحدة لهم مصالحهم المشتركة تتلخص في : « المصالح السياسية حيث أثبت التاريخ أن مصالح العرب السياسية واحدة ، وأن تضامن العرب يزيد من قوة الأمة العربية في المجال الدولي . كما أن المصالح الدفاعية والعسكرية في اتحاد الأمة العربية ليزيد من قدرتهم على مواجهة احتمالات العدوان مهما كان مصدره ، وفي ذلك تأمين لاستقلال الدول العربية . وأن المصالح الاقتصادية للأرض العربية متنوعة متكاملة يستطيع

---

(١) سورة الشعراء الآيات : ١٩٢ – ١٩٥ .

بعضها أن يسد حاجة البعض الآخر . وعن طريق التعاون الاقتصادي يمكن للوطـــن العربـــي أن يكتفـــي ذاتـــيًا إلى حد كبير ، ويعود بالخير على جميع أبنائه »[1] .

(١) الوحيد في التاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية ، محمد أمين ، ص١ – ٩ .

obeikandl.com

القومية والإسلام

كانـــت الدنـــيا بشـــر ، وكان البشر قد قست قلوبهم ، فهي كالحجارة أو أشد قسوة . وانقسم المجتمع إلى طبقات تتصارع ، ودماء تتفاضل وأجناس تختلف وشعوب تتناكر . ونسي الناس تعاليم السماء وهدى الأنبياء وما جاءت بـــه الرسل . ومزقت البشرية مزقًا ، وتفرقت عصبيات ، وأصبحت الأرض وقد ضاق بها البشر ، بعد أن ضاقت بهم .

لقد أرسل الله لهم الأنبياء وبعث الرسل ، وكانت دعوتهم واحدة الناس كلهـــم لآدم وأن ربهم واحد ، وأن لا تفاضل بلون أو عرق أو جنس . ولكن الـــناس ســـرعان ما ينحرفون ، وسرعان ما يلحق الفساد عقولهم ، ويستولي الشر على النفوس . ولكن الفساد لم يتركه الله تعالى يطغى على الناس بل كان يرســـل إليهم الرسل مبشرين بالخير ومنذرين من الشر ، فكان بعض البشرية يستجيب وأكثرها يعرض .

وكان لكل أمة رسول ، ولكل قوم نبي ، وكانت الإنسانية قد شبت عن الطرق فلا بد إذا من أن تبلغ رشدها ، فتوحد في دين وترتبط بمبدأ ، وتلتقي على فكر واحد . فكان لابد من نبي واحد لكل الناس ولكل الأجناس والألسن . فكان النبي الأمي سيد الخلق رسول الله محمد بن عبد الله ، أرسل في جزيرة العرب وغير العرب . ولكنه جاء لشبه الجزيرة العربية ولكل القارات . وبدأ القـــرآن ينزل يقرع الأسماع ويهز الأعماق ، وينادي بعبدة الطاغوت وبعبدة الأوثـــان وعـــبدة الإنســـان أن أفيقوا من غفوتكم وتفكروا في خلق السماوات والأرض .

obeikandi.com

ويـــبدأ صـــوت الحق يعلو ، ويحصل صدى لهذه الدعوة في الأقطار المجـــاورة لشـــبه الجزيرة ، وبدأت شبه الجزيرة تستسلم للنبي ﷺ وللدعوة . ولكـــن النبـــي لم يرسل للعرب وحدهم ، إنه كان نبي الإنسانية ، إذا فليراسل الملـــوك والرؤساء في العالم القديم كله : فبعث سليط بن عمرو إلى صاحب الـــيمامة ، وعلاء الحضرمي إلى صاحب البحرين ، وعمرو بن العاص إلى صـــاحب عمـــان ، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ، ودحية الكلبي إلى قيصر ملك الروم . واضطرب الملوك والحكام ماذا يريد هذا الرجل الذي جاء مـــن العرب . هؤلاء الذين لم يكن لهم وزن في السياسة الدولية ، ولا يكترث بهم أحد ، ولا يرهبوا عدو ، ولا يسعى إلى صداقتهم صديق . فما هذا الرجل لا يكتفي بقومه بل يريد الناس كل الناس .

وهكـــذا أصـــبحت الدعـــوة تسير في الأرض وتتناقلها الدنيا ، ويبدأ الصراع بين المسلمين والعرب ، وليعلن رسول الله ﷺ تطهير أرض الجزيرة من عبادة الأوثان . ثم يتسع الصدام بين المسلمين وبين الروم ومن تبعهم من قبائل العرب التي كانت في أطراف الجزيرة العربية من جهة الشام . ثم يمتد الإصـــطدام حـــتى يشمل فارس ومن معها من قبائل العرب التي كانت تسكن أطراف الجزيرة من جهة العراق وفارس .

إنـــه صـــدام لـــم تكن القوميات فيه المتحاربة . ولم يكن العرب في وضعهم الجديد دعاة عنصر وأهل تعصب ، وإنما حملة هداية ورسالة خير . يريدون أن تهتدي البشرية على أيديهم برسالة السماء وتنقذ من ظلامها بنور القرآن . كما يريدون من البشرية أن تتآخى ، وأن يجمعها دين الله فتتلاقى .

قـــال الله تعالى ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾[1] .

وإذا المحـــبة تســـود والإخاء يلتقي ، وإذا الناس أبناء رجل واحد وأم واحـــدة كمـــا خلقهـــم الله . وإذا الإنسانية تلتقي لأول مرة في تاريخها ينسى الفارســـي نـــاره وعنجهيته ، وينسى الرومي تقديس البشر ، وينسى العربي قبليته وعنصريته ، ويلتقي الإسلام بهم جميعًا فإذا هم في الله متحابون وعلى رسالته مجتمعون .

وإذا الجـــيش جـــيش الإســـلام يلتقي فيه موسى بن نصير العربي مع طـــارق بـــن زيـــاد الـــبربري ، وإذا مالك بن أنس العربي لا يبزه في علمه واجتهاده إلا أبو حنيفة الفارسي . وإذا العقل البشري يتخلى عن كثير مما ألف مـــن الخرافة التي تجعله يتعلق بالدم والعنصر للتفاضل بالتقوى . وامتزجت الألـــوان ، وامتزجـــت الأجناس ، فلا عربي ولا فارسي ، ولا رومي ، ولا كردي . ولا يستطيع واحد أن ينتسب إلى أرومة معينة مدعيًا خلاصة السلالة ونقاء الدم . والتقى الناس على فكر واحد يتفاعلون معها ، فكانت هذه الثروة الفكـــرية التي تغذي قسمًا كبيرًا من الإنسانية ، وتجعل حياتها اليوم تتجه إلى منحى واحد ليس فيه تعجرف العنصريين ، ولا تعصب القبليين ، ولا سخافة المميزين بالألوان ولا المتفاضلين بالأجناس[2] .

---

(١) سورة الحجرات آية : ١٣ .

(٢) أضواء كاشفة ، أسعد بيوض التميمي ، ص٨٠ – ٨٨ .

إن العـــروبة بمعـــناها الثقافـــي هي اللغة بعلومها المختلفة جزء من الإسلام لا يتجزأ .

قـــوة دافعة للبشر في طريق صاعد ، حتى وقف المسلمون على قمة الزمـــن يشيرون الناس إلى درب الخلاص وطريق النجاة ، واستمر ذلك عدة قرون .

فلمـــا اســـتولى علـــى الأمر في بلاد المسلمين ، مسلمون تركوا لغة الإســـلام جهـــلاً مـــنهم بالأمـــر الذي سبب الكارثة .فثارت في أعماقهم بقايا التعصـــب للغتهم وقومهم ، فتركوا لغة الإسلام اللغة العربية . عندها بدأ أول الانحـــراف ، وسارت الأمة في طريق الهبوط . وقد وصلت إلى ما هي عليه الآن مـــن جمـــود عقلـــي ، وانحدار سياسي وتأخر اقتصادي ، وتفكيك إلى دويلات لا يكاد يتفق على عددها علماء الجغرافيا . وصادف في أثناء ذلك أن جاءت طبقة من العلماء أغلقت باب الاجتهاد ، وأرغمت العقول على الجمود والتقليد . مما سبب في الفكر جمودًا ، وفي التشريع من كل مجلوب لا يسعد .

وقـــد جـــاء عصر المماليك الذين قدموا للإسلام خدمات جلى ، دفعوا عـــنها أخطـــارًا عظـــيمة ، ولكنهم كانوا غير منتبهين إلى خطر فصل اللغة العربـــية عن الإسلام . هذا الإسلام الذي جعل المسلمين يتوحدون في الحرب الصـــليبية مـــن جديـــد : « العربي ، والكردي ، والتركي ، وغيرهم » وكل المســـلمين وكـــل الأجـــناس ، وكل الألوان ، وكل اللغات التي دخلت بوتقة الإســـلام . ليصـــهرها ويكون منها خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر فتدحر العدو وتطهر البلاد .

فلمـــا ولت الصليبية الأدبار منهزمة رجعت إلى وكرها في أوروبا . وصادف بعدها أن جاءت النهضة الصناعية ، فلم تنم أوروبا على الهزيمة بل فكرت كيف تمزق المسلمين وتشتت العالم الإسلامي . ولقد عرفت بعدها كيف تعمـــل ، بعـــد أن وجدت أن الإسلام يوحد الفكر ، ويوحد المشاعر ، ويجعل المؤمن ينسى نفسه في ما يعتقد ، فيقدم نفسه في سبيل الله .

فكـــان لابـــد أن يـــنزع الفكـــر الإسلامي من الرؤوس ، وأن يعري المســـلمين مـــن إيمانهم ومن أفكار مبدئهم حتى يعود إلى ما قبل الإسلام إلى العصبية والتفاخر بالأنساب والأجناس . وبالفعل كان الغزو الثقافي بعيد الأثر في تمزيق العالم الإسلامي ، وإيجاد العصبية للجنس وللقوم .

وجاء عصر الانحطاط العقلي ، وخيم الظلام وانتشرت الخرافات التي تســـربت إلى الدين ، وظهرت قاعدة خاطئة ليس لها من الدين أساس . كان موقف المنتسبين للعلم أثر واضح في أن يتجه بعض الشباب المتعلم عن البعد عن الإسلام رويدًا رويدًا خصوصًا أن أكثرهم تعلم على أيدي الغربيين الذين قامـــت نهضـــتهم على أساس فصل الدين عن الحياة . لقد قاس هؤلاء الدين الإسلامي بغيره من الأديان وأرادوا نهضة أمتهم على أساس فصل الدين عن الحـــياة . وأخذ الاستعمار يشجع هذه الفكرة حتى يصل إلى مبتغاه في تفريق المسلمين وتمزيقهم .

لقـــد ركز الاستعمار في الأذهان أن الوحدة لا يمكن أن تتم للاختلاف الحضـــاري بيـــن أجزاء الأمة ، مع أن حضارة الأمة واحدة . ولكن الشعور بـــرغم كـــل العوائق التي وضعها الاستعمار بدأ ينمو رويدًا رويدًا . وخشي

الاســتعمار أن بقي هذا الشعور يعمل وحده أن يؤدي إلى وحدة حقيقية تستند إلــى حضــارتنا ومبدئــنا . فنعود للدنيا مرة أخرى كما أرادنا الله خير أمة أخرجــت للــناس ، تأمــر بالمعروف وتنهى عن المنكر . فأخذ يعمل على التجزئة باسم الوحدة ، فشجع على إنشاء الجامعة العربية التي تنص على بقاء الــتجزئة إلــى الأبد . إذ أن كل دولة من الدول الأعضاء في الجامعة ملزمة بالمحافظــة على حدود الدولة الأخرى وخشي المستعمر أن يقوم شعور يؤدي إلى العودة للإسلام نظام حياة ومبدأ تحضير وقيادة فكر وفلسفة وجود .

لقــد أراد المستعمر أن يصرف شباب الأمة عن سير عظمتهم ومكمن قوتهــم ، فأوعــز إلى بعض الشبان العرب من غير المسلمين في أن يؤلفوا أحــزابًا تقــوم علــى أساس الفكرة القومية التي لا تعترف بالإسلام ، ولكنها تعــترف بالعنصر . وركز في الأذهان أن الإسلام يجب أن يفصل عن الحياة ويبتعد عن الدنيا . وأن الدين عهده قد ولى ، وأن الدعوة إليه رجعية لا تتفق مــع الإنســان المتحضــر . وقد شجع هذا الأمر وهو تشويه الإسلام بعض الحــركات الإســلامية التــي لم تكن تعرف ما تريد وإنما تدعو إلى الإسلام المفتوح بشكل غامض لا يستنير به عقل . ولكن الإنصاف يدعونا إلى أن من بين هؤلاء علماء رجال عمر الإيمان قلوبهم ، وصدقوا أمرهم مع ربهم .

وأن هناك مقارنة لدعاة القومية العنصرية ، بينما عملته الأمة المسلمة يــوم استنارت بنور الله فكان الإسلام مبدأها ، وكان القرآن ميثاقها ، وكانت الســنة طريقها . فاستولت على الدنيا لا مستعمرة ولا غازية ولكن محضرة ومعلمة . وأما اليوم وفي ظل الدعوة إلى القومية ، فحين نقدم حسابنا فلا نجد أنــنا ربحــنا شيئًا ، ألم تستمر التجزئة ؟ ألم تثبت الفرقة ، أين فلسطين . لقد

قدمهـا أبـو عبـيدة بن الجرح وعمر بن الخطاب لهذه الأمة باسم الله واسم الإسلام ، وضاعت في التاريخ مرة وعادت باسم الله وباسم الإسلام .

والأمـة الـيوم تتكون من أقوام مختلفين وعناصر متباينة ، فإذا دعا العربـي إلـى قوميته نادى الكردي بكرديته ، وإذا فضل الجزائري العربي والمغربـي عروبته ثارت في البربري الجزائري أو المغربي عنصريته وهو محق في ذلك . فليس لجنس أن يدعي التفوق على جنس آخر وليس قوم خير من قوم . فإذا أردنا من الكردي أن يضع سلاحه وأن لا يثور البربري علينا أن ندعوهم إلى عقيدتنا وعقيدتهم إلى الإسلام إلى الذي يحارب الفرقة ويدعو إلى المحبة والوحدة[1] .

إن من أخبث ما واجه المسلمين في عصرهم الحاضر انتشار المذاهب اللادينـية لمحـو شريعة الله من الأرض . وتشتت ولاء المسلمين الواحد إلى ولاءات جاهلية متعددة .

إن روح الجاهلـية بـالعودة بالمسـلمين إلى جاهلية العرق والنسب والـتراب والتي تبدو فيها صورة منافاتها وتناقضها للعقيدة الإسلامية . ومن ذلـك « القومية » التي تحصر الولاء في دائرة الجنس أو التراب ، فيلتقي فيها المسلم العربي مع المشرك العربي لأن رابطة القومية تجمعهم . فالرابطة في ديننا الحنيف رابطة العقيدة ، فضلاً أن الوطنية والقومية ضيقتا دائرة الولاء .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٨٢ – ١٠٠ .

obeikandl.com

إن العـــالم الإســـلامي كان أمة واحدة تظله راية «لا إله إلا الله محمد رسول الله » . ورغم خط الانحراف الذي يرتفع ويهبط في تاريخ المسلمين إلا أنهم إلى ما يقرب من ثلاثة قرون كانوا يشعرون أنهم أمة واحدة يدينون بدين واحـــد ويؤمنون بكتاب واحد . ولقد كان المسلم كلما حل أرضًا وجد فيها له إخـــوة فـــي الإيمان وإن كانت الألسن مختلفة والألوان متباينة . لأن الإسلام أذاب كل تلك الفوارق واعتبرها من شعارات الجاهلية . ولكنه نتيجة لضعف المسلمين وتمكين عدوهم من أنفسهم سهل استعمارهم من قبل أرذل خلق الله ، وهم اليهود والنصارى .

وبعد أن تمكن العدو من السيطرة على أرض الإسلام بث سمومه لنزع الـــولاء الإسلامي ليحل محله الولاء الجاهلي الكافر . وأخذت هذه بالمغالطة عـــند البعض بأن هذه الأفكار لا تتعارض مع الإسلام . ويقال ما الذي يمنع المسلم أن يكون مسلمًا وقوميًا أو مسلمًا علمانيًا ، وأدرك أعداء الإسلام مدى جـــدوى وفعالية ذلك . بدؤوا ببث فكرة القومية ، مبتدئين بتركيا مقر آخر خلافة إســـلامية . حيـــث نشأت هناك « القومية الطورانية »وتزعم هذه الدعوة حزب

« الاتحـــاد والترقـــي » فبدأ «بتتريك »تركيا وعودة القومية الطورانية متخذين لذلك شعار « الذئب الأغبر » الذي هو معبود الأتراك قبل أن يعرفوا الإسلام .

وبهـذا التـتريك أخـذت الدولة العثمانية تضغط على العرب ، حيث تعطي الأتـراك امتـيازات خاصـة بهـم لأنهم ترك . وهذا الفعل فضلاً عن كونه يعـارض مبدأ العدل الإسلامي هو أيضًا مؤشر للعرب أن يتحدوا في قومية جديدة[1] .

ونـادى دعاة القومية الناس فقالوا : ما المانع أن يكون المسلم العربي عربيًا مسلمًا ، ثم قالوا يكون عربيًا فقط . أليس الإسلام عربيًا إذًا ما هو عيب القومـية العربـية . إن العرب إذ ذلوا ذل الإسلام فلننادي بالقومية العربية . وهـذا كـلام غير صحيح لأنه يوم ذل العرب جاء «صلاح الدين الكردي » وجـاء «قطـز المملوكي »فأنقذا المسلمين من ذلك الهوان ، وانتصر القائدان بقولهمـا وإسـلاما . ولم يكن في حسهم ولا في عقيدتهم هذه التفرقة ولا هذه النعرة الجاهلية[2] .

إن الإسلام يكذب ذلك الزعم الذي يزعمه القوميون لأنه جاء لانتزاع

هـذه الـنعرات فجمـع في دعوته بل في أول دعوته : « أبا بكر العربي القرشـي ، وبلال الحبشي ، وصهيبًا الرومي ، وسلمان الفارسي ». وكما

---

(١) الولاء والبراء في الإسلام ، محمد القحطاني ، ص٤١٧ – ٤٢٤ .

(٢) المذاهب الفكرية المعاصرة ، محمد قطب ، إملاءات عام ١٣٩٩هـ .

قـــال عمر رضي الله عنه : نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فإذا التمسنا العزة بغيره أذلنا الله .

إن تقلـــيد الغـــرب في استيراد مبدأ القومية أو العلمانية أو أي مذهب أو فكرة : يعيد للأذهان تلك القصة الرمزية القديمة التي تتحدث عن حمارين كـــان أحدهمـــا يحمل ملحًا وكان الآخر يحمل إسفنجًا . فرأى حامل الإسفنج صاحبه ينزل إلى الماء فيذيب بعض الملح ويخرج منه أخف حملاً ، فخطر له أن يحصـــل علـــى المزية نفسها بالأسلوب نفسه فكانت النتيجة على عكس ما توقعه وخرج من تجربته أثقل حملاً[1] .

القومية ظاهرة برزت في المجتمعات الغربية في القرن التاسع عشر ، يمجـــد جماعـــة محدودة من الناس ، يضمها إطار جغرافي ثابت ، ويجمعها تراث مشترك ، وتنتمي إلى أصول عرقيه واحدة . والقومية بهذا المعنى تدعو أصـــحابها إلى العمل على تعزيز ثقافتهم الموحدة ، وتدعيم تراثهم المشترك ، وتنمـــية مصـــالحهم الخاصـــة . مع حصر جهودهم في هذا النطاق وحده ، دون نظـــر إلى الاعتبارات التي كانت تجمعهم قبل ذلك مع غيرهم في رباط مشترك .

---

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة ، الحضارة الغربية ، سيد قطب ص٢٣٧ .

obeikandl.com

وقـد انتقلـت عدوى هذه النزعة القومية إلى العرب ، وإلى المسلمين على وجه العموم ، وأصبحت ظاهرة بارزة في البلاد العربية والإسلامية مع مطلع القرن العشرين الميلادي . ودخلت هذه المجتمعات في صراع بين هذه المفاهيم القومية المستحدثة ، وبين المفاهيم الإسلامية التي لا يقوم فيها اعتبار للأجـناس . والتـي تعتـبر المسلمين حيثما كانوا أمة واحدة الدين فيها مقام النسب .

انتشـرت هذه الدعوات القومية بين المسلمين في البلاد العربية ، وفي البلاد الإسلامية . وأخذت القومية العربية التي بدأت إلى جمع شمل العرب في دولـة واحدة ، فقد كانت منذ نشأتها ، ولا تزال موضع جدل كثير . نتج عما أحاطهـا فـي أذهـان العـرب والمسلمين من لبس يرجع إلى أن العرب هم جرثومة الإسلام وأصله الأول ، وإلى أن لغتهم هي لغة الإسلام التي نزل به كـتابه ، والتي تؤدي بها كل شعائره . وبرزت كلمات « العروبة ، والجامعة العربـية ، والقومـية العربية » على التعاقب . ثم اختلطت مفاهيمها ، وكان المقصـود بهـا في كل الأحوال هو الصفات الجامعة لذلك الجنس من الناس المسمى عند المعاصرين « بالعرب » . والمحافظون من دعاة القومية العربية يـرون أنهـا فرع من التصور الإسلامي خاص بالذين يتكلمون العربية من المسـلمين أو الدول التي ضمتها الخلافة الإسلامية منذ ظهور الإسلام . أما المـتفرنجون مـن دعـاة القومية العربية ، فهم يستمدون تصورهم من غلاة

القومـــية عند مفكري العرب ، ولا يقيمون وزنًا لقديم العرب الإسلامي الذي حدد شخصيتهم ، ولا يرتبطون بالسمات التاريخية بهذه الشخصية .

كانـــت كلمـــة « العرب » تطلق قبل الإسلام على سكان جزيرة العرب وتتابعت هجرة القبائل العربية إلى الأمصار المفتوحة على اختلاف أسبابها ، مـــنهم من هاجر في سنوات القحط وفي أوقات الجفاف ، فاستقر في موطنه الجديـــد . ومنهم من ذهب مع الجيوش الفاتحة ، ثم لم يعد . ومنهم من هاجر اســـتجابة لدعوة أمراء العرب في هذه الأمصار الذين رأى بعضهم أن يستقدم بطونًـــا مـــن عشيرته يتقوى بهم ، وكان العرب في أول الأمر ، على امتداد الدولة الأموية يترفعون عن الاختلاط بأبناء البلاد المفتوحة ، وكانوا يعتزون بأنســـابهم فـــي قبائلهم . ولذلك حرصوا على حفظها من الاختلاط بغيرهم ، وظـــل اسم « العرب » طوال مدة الدولة الأموية يطلق على المنتسبين إلى هذا الجنس ممن قدموا على الأمصار المفتوحة . وذلك مقابل اسم « الموالي » الذي كـــان يطلقـــه العـــرب علـــى مـــن عداهم من الأجناس في هذه البلاد ترفعًا واســـتعلاء . ولـــم ينـــته القرن الأول الهجري حتى كانت اللغة العربية لغة التخاطـــب والـــتعامل والتدويـــن في هذه البلاد جمعيًا ، وأصبح الإسلام دين الســـواد الأعظـــم من سكانها . وكادت لغات البلاد القديمة تنسى بعد أن أقبل الناس على العربية : (قرآنًا وحديثًا وشعرًا ولغةً) ، يحاولون إتقانها ومنافسة العرب أنفسهم فيها[1] .

---

(١) تاريخ الإسلام والحضارة الغربية د/محمد حسين ، ص ٢٢٥ – ٢٣٠ .

وعلى توالي الأيام زاد امتزاج العرب في الأمصار بأبناء البلاد بالتصاهر ، واختلطت أنسابهم بتوالي الأجيال ، فضعفت العصبية العربية المبينة على النسب تبعًا لذلك[1] .

وزاد على مر الأيام عدد الفقهاء والشعراء والمشتغلين بالعلوم العربية . وبذلك انتهت النعرة العنصرية العربية ، وأصبحت الصبغة الظاهرة في البلاد الإسلامية على اختلافها هي الإسلام . وأصبحت اللغة العربية خطًا شائعًا بين العرب وغير العرب بلا تمييز ، بل أصبح عدد المشتغلين بها أكثر عددًا وأغلب شهرة . مثل : « أبو حنيفة الفقيه ١٥٠ هـ »فارسي ، ومحمد بن إسحاق أول من دون السيرة النبوية « ١٥١هـ »[2] ، وسيبويه أبو النحو « ١٨٣هـ »فارسي ، والبخاري شيخ المحدثين « ٢٥٦هـ »تركي ، والطبري شيخ المؤرخين والمفسرين « ٣١٠هـ »تركي ، وابن سينا أبو الطب العربي « ٤٢٨هـ »أفغاني ، وصلاح الدين الأيوبي بطل الحروب الصليبية « ٥٦٤هـ »كردي . وبذلك صح أن توصف هذه البلاد جميعًا بأنها عربية ومسلمة في آن واحد ، دون أن تغلب فيها إحدى الصفتين على الأخرى .

ويتبين لنا بوضوح أن البلاد العربية كلها ليس لها تاريخ في العروبة يسبق الإسلام ، بل إن عروبتها في الحقيقة تتأخر عن إسلامها ، وهذه العروبة لم تجئها إلا من طريق الإسلام وبسببه . ذلك بأن الإسلام دعا

---

(١) تاريخ ابن خلدون ، ٦ : ٣ .

(٢) الأعلام ، للزركلي جـ٦ ص٢٥٢ ، وكان جده يسار من سبي عين التمر والمطلبي بالولاء .

المسـلمين إلى أن يحبوا العرب ، ويلتفوا حول رايتهم ، ويتخذوا العربية لغة جامعة لشملهم .

من أجل ذلك كان التفريق بين العروبة والإسلام في أيامنا هذه لا يستند علـى أساس . فالإسلام هو الذي أعطى للعرب لغتهم ، ووحدهم عليها وعلى القيم التي تضمنها كتابه الكريم وسنة نبيه ﷺ . ولم يقتصر الأمر على قيام هذه الـروابط الإسـلامية الجامعـة بيـن العرب ، فقد امتدت آثارها إلى سائر المسلمين ، الذين تأثروا بهذه القيم والنظم الخلقية والاجتماعية ذاتها . والذين إن فـاتهم اتخـاذ العربـية لغة لهم ، فلم يفتهم اتخاذ حروفها لتدوين تراثهم ومعارفهم . نشأت حين الدعوة المعاصرة إلى القومية العربية في أواخر القرن التاسـع العشـر المـيلادي ، أو ما كان يسمى وقت ذاك بالجامعة العربية ، ويعـنون بهـا الرابطة لشمل العرب . كان العرب يشكلون الجزء الأكبر من الدولـة العثمانـية . واتخـذت الدعوة في أول أمرها شكلاً ثقافيًا يعني ببعث الـتراث العربـي ، والدعوة إلى الاهتمام باللغة العربية ، وجعلها لغة التعليم والقضـاء والدواوين في البلاد العربية بدلاً من اللغة التركية التي كانت هي اللغة المستعملة . وكانت كثرة كبيرة من رجال الرعيل الأول في هذه الحركة وفـي هـذا البعـث من مسيحي لبنان . ومنذ ذلك الوقت نشأت التفرقة بين العـروبة والإسلام على يد هذه الطائفة ، ولم يعد اسم الجامعة العربية مرادفًا لاسم الجامعة الإسلامية .

والواقـع أن الذيـن دعـوا إلـى الجامعة العربية كانوا مختلفين في تصورهم لهذه الجامعة ، متباينين في أغراضهم التي يستهدفونها من وراء هذه

الدعوة . كانت الجامعة الإسلامية وقتذاك هي الرابطة التي تربط أجزاء الدولة العثمانية . وبدعوة الناس إلى الالتفاف حول رايتها والاعتصام بها في وجه الأطماع الاستعمارية التي تنظر بفارغ الصبر الوقت الملائم لاقتسام البلاد الداخلة في هذه الدولة إلا أن بعض دعاة الجامعة العربية من المسلمين لا يرون تعارضًا بينها وبين الجامعة الإسلامية ، ويسلمون بأنها الجامعة الأهم بين المسلمين في سائر بلاد الأرض . ولكن فريقًا من هؤلاء المسلمين الذين يتمسكون بالجامعة الإسلامية ، كان يرى التفرقة بين الخلافة وبين السلطنة ، بجعل الخلافة في العرب والسلطنة في الترك ، وحجتهم أن العرب هم أقدر الناس على فهم الإسلام وتبليغه .

وكان هناك فريق ثالث من المسلمين واقع تحت تأثير الدعوات القومية المتطرفة التي اشتدت حركتها في أوروبا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، وهؤلاء كانوا يتصورون الجامعة العربية تصورًا قوميًا خالصًا ، ويجردونها من كل صلة بالدين . وكان الشغل الشاغل لهذا الفريق هو إنشاء دولة عربية مستقلة على النمط القومي الغربي . وهذا الفريق يلتقي في تصوره القومي مع غلاة القوميين من الترك ، الذين يدعون إلى القومية « الطورانية » .

أما المسيحيون ، فقد كان من الطبيعي أن يكونوا ضمن الفريق الذي يرى الجامعة العربية قومية خالصة ، لأنه غير داخل بحكم مسيحيته في الجامعة الإسلامية ، وليس له ولاء قلبي لها ، فكل الذي يربطه بالدولة هو الولاء الوطني . وكان من الطبيعي أن يجد الإستعمار والصهيونية في هذا

الفـــريق الأخير من المسلمين والمسيحيين على السواء صيدًا يمكن أن يلتقي معـــه فـــي فترة مرحلية تمهد لتحقيق أغراضه . فالإستعمار الإنجليزي كان طامعًا في العراق ، وفرنسا كانت تطمع في الشام والصهيونية العالمية كانت طامعـــة فـــي الاســـتيلاء على فلسطين واتخاذها وطنًا قوميًا لليهود ، فكانت الجامعـــة العربـــية أو القومـــية العربـــية تمثل في نظر الفريق فترة مرحلية للإســـتقلال عن الدولة العثمانية . وقد واكبت نشأة الجامعة العربية سوء ظن متبادل بين العربيين والإسلاميين . فالإسلاميون يرون أن هذه الدعوة العربية التـــي نشـــأت فـــي حضانة أمريكية صهيونية والتي تساندها إنجلترا وفرنسا وتمدانهـــا بالمـــال والســـلاح لا يمكـــن أن تخـــدم إلا مطـــامع الإســـتعمار والصهيونية[1] .

وإذا كانت دار الإسلام هي الوطن الأكبر بالنسبة للمسلم ، فإن هذا لا يعنـــي انـــتفاء حـــب المسلم لوطنه الأصغر الذي نشأ فيه . فالجهاد في سبيل الوطن الأصغر فرض عين ، بينما هو فيما وراء ذلك من أقاليم الوطن الأكبر مـــن فروض الكفايات . والأقربون أولى بالمعروف والزكوات والصدقات لا تخـــرج من المدينة أو الإقليم أو الوطن إلا بعد كفاية ساكنيه . وتلك الشواهد على اتساق الأحكام الشرعية والتكاليف الإسلامية مع توالي وتدرج ، وترابط دوائر الانتماء الإسلامي في إطار الإسلام .

إن رسول الله ﷺ هو القدوة والأسوة في هذا المقام ، التي حاصر أهلها دعوة الإسلام ، واستفزوه ﷺ من الأرض إخراجًا ، وهموا ليثبتوه ويسجنوه .

---

(١) الإسلام والحضارة الغربي ، د/محمد حسين ، ص٢٢٥ – ٢٣٠ .

بل ودبروا لقتله . مكة هذه ، وهي على هذا الحال ، ظل القلب النبوي جياشًا بحبها ، حتى لقد ناجاها لحظة الخروج منها يوم الهجرة حدثنا الليث عن عقيل عـــن الزهري عن أبي سلمه عن عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري قال : رأيـــت رسول الله ﷺ واقفًا على الحزورة « التل الصغير » فقال : **((والله إنك لخـــير أرض الله وأحـــب أرض الله وأحـــب أرض الله إلى الله ، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت))**[1] .

بـــل وظـــل قلبه ﷺ جياشًا بحب مكة وهو في المدينة ، حتى لقد كان يدعـــو ربه أن يحبب إليه المدينة كحبه لمكة . وكان حريصًا في المدينة على أن يســـمع من القادمين من مكة وصف معالمها والتذكير بمشاهدها . وعندما كانـــت الأوصـــاف تؤجج المشاعر ، كان يطلب من الواصفين التوقف « لتقر القلوب » .

كذلك الحال مع الدائرة التالية « الوطن ، الإقليم » أي « الوطن – الذي يعـــيش فيه قومي » وكلمة « قوم » التي اشتقت منها « القومية » ، هو مصطلح « عربي ، قرآني » . وفي القرآن الكريم حديث عن العرب ، قوم الرسول ﷺ **﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾**[2] .

فقوم الإنسان هم الدائموا الإقامة معه ، الذين تربطهم به الروابط التي اصـــطلح علـــى تســـميتها « سمات القومية » ، وهي التي تحدد اللغة دائرتها وخريطـــتها . فالقومـــية فـــي الرؤية الإسلامية هي الدائرة اللغوية في إطار

---

(١) سنن الترمذي ، جـ٥ ص٧٢٢ حـــ رقم ٣٩٢٥ .

(٢) سورة الزخرف آية : ٤٤ .

الانـــتماء الإسلامي الأكبر ، وعالمية الإسلام لا بد أن تشمل أقوامًا تميزهم اللغـــات والألســـنة قـــال الله تعالى : ﴿ **ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين** ﴾[1] . فإذا كان اختلاف اللغـــات سنة وآية من سنن الله وآياته ، فلا بد أن تشمل عالمية الإسلام أقوامًا وقوميات تتمايز لغويًا ، أي قوميًا ، في إطار محيط الانتماء الإسلامي الأول .

وإذا كـــان الغلـــو في العصبية الوطنية هو الذي يجعل « الوطنية » في حالـــة تـــناقض مع ما يليها من دوائر الانتماء القومي والإسلامي ، ومن ثم يخرجها عن أن تكون انتماءًا فرعيًا في إطار الانتماء الأكبر ، ويجعلها نهاية المطـــاف وغايـــة الأفـــق بـــدلاً من أن تكون درجة في سلم الانتماء المتعدد الدرجات ، وهذا اللون من « الوطنية » هو المرفوض إسلاميًا . فإن « القومية » إذا خرجت مضامينها عن دائرة « اللغة » ، وأصبحت عرقًا وعنصرًا ، يعزل القـــوم عن الدائرة الإسلامية ، أو يضعهم في تناقض مع الملة ، فإنها تخرج المفهوم والمضمون عن أن تكون حلقة وصل بين « الوطنية » وبين « الجامعة الإســـلامية » ، وتتحول من درجة في سلم انتماء أكبر إلى « عازل » ونقيض « للوطنـــية » و « للإســـلامية » معًـــا . وهذا المعنى الضيق للقومية مرفوض إسلاميًا .

وفـــي دائـــرة الأمـــة الإسلامية ، ودار الإسلام ، والانتماء الإسلامي « دوائر لغوية » أي « قوميات » ، وإذا نحن نزعنا العنصرية التي تجعل عوامل تشرذم للانتماء الإسلامي ، فإن الانتماء الإسلامي سيحتضن محيطه « الجزر

---

(١) سورة الروم آية : ٢٢ .

القومـــية »فـــي عـــالم الإســـلام . وهـــذه الحقيقة أشد وضوحًا مع « القومية العربـــية » ، لأن اعـــتماد « العربية » – كلغة – معيارًا لتحديد « العربي » و « القوم العرب »سيدخل العروبة في النسيج الإسلامي إدخالاً عضويًا . لأن اللغة العربـــية هـــي فـــي الوقت ذاته لسان الإسلام ، وخاصية الإعجاز القرآني ، وسبيل الاجتهاد واستنباط الأحكام من المصادر الأصلية للإسلام .

وكذلك الحال مع « الدوائر الإسلامية » أو « الجامعة الإسلامية » ، وهي دائـــرة الانتماء الأكبر . فعلينا أن نراها محتضنة ومستوعبة دوائر الانتماء الفرعـــية وطنية وقومية ، بل وأحيانًا قبلية وعشائرية . وأن نرفض التناقض الذي يفتعله البعض بينها وبين الولاءات والانتماء ات الفرعية والصغرى .

إن التشـــديد على الدائرة « الوطنية ، القطرية ، الإقليمية » ،هو مفهوم عنصري ضيق الأفق لمصطلح « الوطنية » . وكذلك الحال التشدد في النظر إلـــى الدائرة « القومية ، عربية أو غير عربية » ، مع إسقاط الدائرة الإسلامية هو الآخر مفهوم عنصري ضيق الأفق لمصطلح « القومية » . طرأ على فكرنا من المفاهيم القومية الغربية . التي تشابه « العصبية الجاهلية الأولى » .

وإذا نحـــن اعـــتمدنا علاقـــة الأخـــص بالخاص والعام بالأعم لدوائر « الوطنية » و « القومية » و « الجامعة الإسلامية »و « الإنسانية » ، انتفت هذه التناقضـــات المفـــتعلة . ذلـــك بـــإحلال منهاج الفطرة السليمة محل المفاهيم العنصرية الطارئة على حياتنا الفكرية العربية الإسلامية .

ولقد كانت اليقظة الإسلامية المعاصرة على وعي بالمنهاج الإسلامي في هذا الموضوع ، فصاغت الموقف الفكري الإسلامي الخاص به ، ومارست عملها دونما اعتبار للعصبيات والتشرذم الإقليمي والعنصرية القومية ووفقًا للشريعة الإسلامية . فالإسلام هو الرابط فحسب والإسلام اعتبر الحق لدار الإسلام من منطلق المصلحة لا القومية ولا الوطنية .

صاغ الشيخ حسن البنا رحمه الله قضية الانتماء على النحو الذي لا زيادة بعده لمستزيد ، ومما قاله فيها : (إن المسلمين يحبون وطنهم ويحرصون على وحدته ، ولا يجدون غضاضة على أي إنسان أن يخلص لبلده المسلم ، وأن يعنى في سبيل قومه ، وأن يتمنى لوطنه كل مجد وفخار . وأن يقدم في ذلك الأقرب فالأقرب رحمًا وجوارًا .

فالوطنية لم تخرج عن أنها جزء من تعاليم الإسلام . أما وجه الخلاف بيننا وبينهم فهو أننا نعتبر حدود الوطنية بالعقيدة ، وهم يعتبرونها بالتخوم الأرضية والحدود الجغرافية . ثم إن هذا الإسلام الحنيف نشأ عربيًا ، ووصل إلى الأمم باسمه على هذا اللسان يوم كان المسلمون مسلمين . وقد جاء في الأثر : إذا ذل العرب ذل الإسلام . وقد تحقق هذا المعنى حين ذل سلطان العرب السياسي ، وانتقل الأمر من بين أيديهم إلى غيرهم من الأعاجم والديلم ومن إليهم ، فالعرب هم عصبة الإسلام وحراسه)[1] .

---

(١) مجموعة رسائل الشيخ حسن البنا ، ص ١٧٦ – ١٧٨ .

أمـــا عـــن حديـــث العروبيـــن الذين يجردون العروبة من الإسلام ، والإســـلاميون اللذيـــن يسيئون الظن بالعروبة والقومية العربية ، بدعوى أنها تفتـــت الوحدة الإسلامية . نقول للفئتين إن الانحراف الذي صحب الدعوة إلى جامعـــة إســـلامية في ظل دولة إسلامية جامعة للشمل قد دفنت بالأمس . أما الـــيوم إذا صـــححت مســـيرتها ،فالخطوة الأولى ، إلى تحقيق هذه الجامعة الإســـلامية هي الجامعة العربية . فالعرب هم أقرب الناس بين المسلمين إلى تحقـــيق وحـــدة جامعـــة بحكم اللغة المشتركة التي تربط بعضهم ببعض من ناحـــية ، والتـــي تربطهم بأصول الدين الإسلامي من ناحية أخرى . وبحكم تجمـــع دولهـــم وتلاصـــقها فـــي حيز مكان واحد لا تقوم بين أجزائه عوائق أو فواصل طبيعية . وهم بحكم هذا التقارب والتآلف واتفاق العادات أو تقاربها مهيـــئون لأن يكونوا نواة إسلامية صلبة تشيع على العالم الإسلامي من ثقافة الإسلام . وتحمل من أعباء الإرشاد والتوعية والرعاية ما تعجز الدول العربية متفرقة عن النهوض به .

فالجامعـــة العربية هي نقطة البدء التي لا بديل منها في هذه المسيرة الطويلة نحو جامعة إسلامية لا سبيل إليها الآن ، مع انشغال كل بلد من بلاد المســـلمين بمشكلاته الخاصة ، وانعدام وسائل التواصل بينها باختلاف لغاتها وبـــبعد شـــعوبها . فـــالوحدة المهيأة أسبابها الآن هي وحدة البلاد العربية . أمـــا الـــبلاد الإسلامية الأخرى أن تسبق وحدتها خطوات أخرى ، أولها نشر اللغة العربية التي لا تتم جامعة بغيرها . إن مقاومة الأخطاء في إدراك حدود العـــروبة ومقوماتهـــا بالهرب عنها وبمهاجمة العروبة ذاتها . والحزم في أن

تواجه هذه الأخطاء بتصحيحها وبيان زيفها . وسوف تكون العروبة الإسلامية عند ذاك محط آمال المسلمين جميعًا ، ومهوى قلوبهم .

وانتهت الحرب العالمية الأولى ، ووزع المشرق العربي ، والمغرب العربي بين إنجلترا وفرنسا ، وكانت ليبيا محتلة بالجيوش الإيطالية . عند ذلك بدأ الإسلاميون يعيدون التفكير في الموقف الذي آل إليه أمر المسلمين والعرب ، ورأوا أن البديل الوحيد من الجامعة الإسلامية هو « الجامعة العربية » . أما دعاة الجامعة العربية ، فقد انقسموا شيعًا فالإسلاميون منهم ظلوا ثابتين على دعوتهم ، وغلاة القوميين من المتأثرين بالقوميين الغربيين ظلوا على ما كانوا عليه من الدعوة إلى جامعة عربية مجردة من الإسلام ، والبعض منهم ممن تولى المناصب في ظل التقسيم الجديد الخاضع للاستعمار ركنوا إلى الدعة وسكنوا إلى النظم التي يعيشون في ظلها .

العروبة بطبيعتها وبحكم نشأتها ونموها وازدهارها هي عروبة إسلامية . وقد ساهم في تطورها الحضاري على مدى القرون والأجيال عناصر عربية غير مسلمة . ولكن مساهمتها ظلت في داخل الإطار الإسلامي الذي لم يكن يسمح لأحد بالخروج عليه . ولم تجد هذه العناصر العربية من غير المسلمين غضاضة في أن تساهم في بناء هذه الحضارة في الحدود الإسلامية ، لأن هذه الحدود لم تكن تتعارض مع عقائدهم ، والحريات مكفولة لهم على السواء .

الشخصية العربية هي شخصية عريقة تضرب عروقها في أعماق التاريخ ، وقد ارتبطت بالإسلام ونمت ليس على إطلاقه فإن الشخصية العربية

موجودة قبل الإسلام وفي الجاهلية ونشأتها سابقة للإسلام وتطورت ونضجت في داخل إطاره . دون أن يكون في ذلك تعارض مع أصول الأديان السماوية الأخـــرى التـــي نبعت من المنطقة ذاتها . فالإسلام هو الذي أعطى العروبة شـــكلها الثابـــت المحدد التي يلتقي عندها كل العرب . أما غلاة القوميين من المســـلمين مـــع فـــريق من المسيحيين في الدعوة إلى القومية لا دينية ، فهم واقعـــون تحت تأثير ما توهموه من أن النهضة الأوروبية الحديثة كانت ثمرة لـــتجريد الحكم من الصفة الدينية . فإذا جردةً من هذه القيم الدينية المسلم بها عند العرب ، فما هي المقومات التي تحل محلها عند العرب . فالماديون منهم سينزعون إلى الماركسية ، وسيشتركون مع الليبراليين في السخرية من القيم الدينية ، فيقع الصراع بينهم وبين المتدينين .

فالمســـيحيون الذيـــن يخافون على أمنتهم وسلامتهم وحريتهم في ظل عـــروبة إســـلامية هم أكثر خوفًا وأبعد عن الأمن في عروبة لا دينية . لأن الإســـلام وحده هو الضامن لمنع انحراف المسلمين إلى عصبية جهولة عمياء تحطـــم وتعـــتدي وتظلـــم . وأن قـــوام الديمقراطية التي يتغنى بها أهل هذا العصـــر ، هـــو نزول القلة على حكم الكثرة . فلماذا تجد القلة غير المسلمة غضاضة في إقرار الكثرة المسلمة على بناء حياتهم في ظل الإسلام ، وعلى هدى منه[1] .

---

(١) الإسلام والحضارة الغربية ، د/محمد حسين ص ٢٥٣ – ٢٥٤ .

obeikandl.com

الدولة

تعــرف الدولـــة مـــن أنها مجموعة دائمة من الأفراد ، يملكون إقليمًا معيـــنًا ، وتضـــم ســـلطة منظمة بهدف تمكين الجماعات والأفراد من التمتع بحقوقهم وبالشخصية المعنوية والنظام والإستقلال . والدولة هي الشخص الذي يمـــثل أمة تقطن أرضًا معينة ، والذي بيده السلطة العامة « السيادة » . وهناك تعريف أوضح من أن الدولة عبارة عن ذلك الشخص المعنوي الذي يرمز إلى مجموعـــة شعب مستقر على إقليم معين حكامًا ومحكومين . بحيث يكون لهذا الشخص سلطة سياسية مجردة ذات «سيادة » . ولوجود الدولة يتعين أن يكون المجـــتمع السياســـي قد وصل في تطوره إلى الحد الذي يسمح بتحقيق أمرين أساسيين :

أولهما : أن يكون الاستقرار قد عمق الشعور بالتضامن بين أفراد هذه المجموعـــة البشرية بحيث يتم انصهارهم في وحدة بشرية لها ذاتيتها المتميزة عن غيرها من الوحدات الأخرى المجاورة .

ثانـــيهما : أن يتطور التنظيم السياسي والاجتماعي للمجموعة البشرية بحيث يقترب قدر الإمكان من الحد الذي يسمح بوجود نظام شبه دائم ومستمر لظاهرة السلطة السياسية .

ووفقًـــا للمفهوم السابق فإن الدولة ليست إلا جماعة بشرية تكاملت لها خاصـــيتان رئيســـيتان : «رابطـــة قويـــة للتضامن ، وتنظيم سياسي قانوني

مـــتكامل » . كمـــا أن مجـــرد وجود المجتمع السياسي بما يعنيه على توافر عناصر « الأفراد ، والإقليم ، والسلطة » لا يفيد وجود الدولة ، لأنه لا بد من توافر شرط الإستقلال أو ما يعرف بسيادة الدولة . فإذا كانت الدولة كما ورد فـــي بعض التعريفات السابقة : عبارة عن ذلك الشخص المعنوي الذي يرمز إلـــى مجموعة شعب مستقر على إقليم معين حكامًا ومحكومين ، بحيث يكون لهـــذا الشخص المعنوي سلطة سياسية ذات سيادة ، فإنه يكون للدولة الأركان الأساسية الآتية :

أولاً : الشعب :

وجـــود السكان أو الشعب هو الشرط الأساسي لوجود الدولة . وليس مـــن الضـــروري أن يكون شعب الدولة من عدد معين ، فقد يقل العدد حتى يكـــون بضـــعة آلاف ، وقـــد يـــزيد فيتجاوز مئات الملايين . وأنه ليس من الضـــروري أن يـــتكلم شعب الدولة لغة واحدة أو ينتسب إلى قومية واحدة . حيث قد تتباين الأجناس والقوميات التي ينحدر منها شعب الدولة الواحدة .

وفي تعريف الأمة أنها جماعة بشرية لا تقوم فقط على أساس التركيب « البيولوجـــي » الذي يرتبط بالميلاد والدم والأصل البشري . ولكنها بالإضافة إلـــى ذلك تركيب أخلاقي اجتماعي ، يرتبط بنمط حياتي معين ، وبمجموعة مشتركة من الأحاسيس النابعة من وحدة الأصل ووحدة البيئة ووحدة التاريخ . وهي تختلف في ذلك عن الدولة في أن الأخيرة هي مجرد وحدة قانونية يكون

لها سلطة سياسية ذات سيادة . أي أن الدولة ليست إلا تنظيم سياسي ، وليست كل أمة دولة .

كمـــا يظهر الاختلاف بين الدولة والأمة في أن الأمة قد تسبق وجود الدولـــة ، وذلك إذا انقسمت الأمة الواحدة بين عديد من الدول . بمعنى أنه قد توجد أمة واحدة ، ولكن مع ذلك نجدها موزعة بين دول مختلفة . ومثال على ذلك « الأمة العربية » التي تكونت منها دول كثيرة .

ثانيًا : الإقليم :

يعتـــبر الإقليم شرط وجود الدولة باعتبار أن الدولة هي الأساس وهي مجموعـــة من الأفراد تعيش معًا عيشة مستقرة ودائمة ، وهو ما لا يمكن أن يـــتحقق بغـــير الإقليم والأرض . كما أن الإقليم هو ركن أساسي من أركان ممارســـة الدولـــة لســـيادتها . فالســـيادة تبنى على قيام الدولة بإخضاع كل الأشـــخاص والأشياء الموجودة داخل إقليمها لسيادتها ، وبدون عنصر الإقليم تصـــبح ممارسة السيادة أمرًا غير ممكن . ومن هنا ، فإن زوال إقليم الدولة يؤدي إلى انقضاء شخصيتها الدولية ، ولكن زيادة الإقليم أو نقصانه لا يؤدي إلـــى ذات النتـــيجة . وإذا كانـــت الـــدول تختلف عن بعضها من ناحية عدد الســـكان ، فإنها تختلف أيضًا من ناحية مساحة إقليمها حيث يكبر أو يقل من دولة إلى أخرى .

ويلاحـــظ أنه لا يقصد بإقليم الدولة الإقليم الأرضي أي سطح الأرض بمعنى اليابسة فقط . وإنما يقصد بذلك سطح الأرض وما تحته من أعماق وما

فوقه من الطبقات الجوية التي تعلو اليابسة . وكذلك البحر الإقليمي أي المياه الساحلية من البحر الملاصقة لشواطئ الدولة ، وما يعلو هذا البحر الإقليمي من طبقات جوية ، وعلى ذلك فإقليم الدولة يشمل : « إقليم أرضي ، وإقليم مائي ، وإقليم جوي » وتتلخص في التالي :

أ- الإقليم الأرضي :

يتحدد بمساحة معينة من الأرض تحدها حدود معينة قد تكون طبيعية مثل الجبال ، أو الأنهار ، أو البحار ، كما قد تكون حدودًا صناعية . وفي حالات أخرى يكتفي بخطوط وهمية كحد فاصل بين دولة وأخرى . ويشمل الإقليم الأرضي للدولة تحت السطح من طبقات لا نهاية لعمقها بكل ما تشتمل عليه هذه الطبقات من شتى مصادر الثروات كالبترول والمعادن والفحم .

ب- الإقليم المائي :

ويشتمل جميع الأنهار والبحيرات الداخلة في حدوده ، وإذا كان النهر يجري في إقليم أكثر من دولة فإن كل دولة تعتبر مالكة لهذا الجزء من النهر الذي يمر بإقليمها . أما مياه الأنهار المشتركة فإن كل استغلالها وتوزيعها بموجب معاهدات تعقد بين الدول التي تملك هذه الأنهار . كما تمتد ملكية الدولة إلى جزء من البحار العامة الملاصقة لأراضيها ، ويسمى بالبحار الإقليمية . وكانت محدودة في القانون الدولي بثلاثة أميال بحرية تبدأ من شاطئ الدولة ، ثم رفعتها بعض الدول إلى اثني عشر ميلاً .

جـ- الإقليم الجوي :

تمتد ملكية الدولة لإقليمها إلى طبقات الهواء الواقعة فوق هذا السطح وسيادة الدولة تمتد إلى ارتفاع معين من جو إقليمها . وما كان أعلى من هذا القدر المعين من الجو يعتبر حرًا لجميع الدول ، ويطلق عليه « الفضاء الخارجي » .

ومما سبق يمكن القول بأن لإقليم الدولة أهمية فيما يتعلق بممارسة سلطة الدولة في تحديد النطاق الإقليمي الذي يمكن للدولة أن تحدد شعبها وأن تحصر رعاياها الذين يعيشون على أرضها . كما أنها أحد الركائز الأساسية لاستقلال سلطة الدولة ، وهو اختصاص الدولة التشريعي والإداري والقضائي بالنسبة للوطنيين والأجانب والحكومات الأخرى . ووفقًا لمبادئ القانون الدولي العام القائم على تعدد الدول المستقلة ، فإنه لا يجوز لإحدى الدول أن تتدخل في الشئون والأحداث التي تقع في إقليم دول أخرى ، و إلا اعتبر ذلك بمثابة انتهاك لسيادتها واعتداء على استقلالها .

ثالثًا : الحكومة :

لا يمكن أن تقوم دولة على أساس وجود مجموعة من الأفراد وإقليم محدد فقط ، بل يلزم وجود سلطة سياسية عامة يخضع لها جميع الأفراد الذين يكونون الجماعة « الشعب » . وتقوم هذه الحكومة بالوظائف التي تلزم لإدارة شئون الإقليم واستغلال موارده وحماية شعبه من أي اعتداء خارجي يهدد أمنهم واستقرارهم . ويستلزم هذا أن يكون احتكار أدوات القمع أو القوة في يد

الحكومـــة حـــتى تـــتأكد لها السلطة العليا التي لا تنازع . والتي بدونها تقف عاجزة عن فرض الاحترام الواجب لما يصدر عنها من تشريعات وقرارات ، وإلزام الأفراد بطاعتها وتنفيذها على النحو الواجب[1] .

(١) علم السياسة ، د/محمد نصر مهنا ، ص٢٧١ – ٢٧٩ . القانون الدستوري والأنظمة السياسية ، د/عبد الحميد متولي ، ص٣٨ – ٤٧ . علم الاجتماع السياسي ، ص١٩ و ٤٧ .

obeikandl.com

نشأة الدولة

تعـددت محـاولات تفسـير أصل الدولة وكيف نشأت ، وأخذت هذه المحـاولات اتجاهات مختلفة . وكان من أهمها « التطور العائلي » الذي يقوم على أساس أن العائلة هي أصل المجتمع . أو بمعنى آخر أن الدولة كانت في أصـلها أسرة تطورت باجتماع وارتباط أكثر من عائلة معًا فتكونت عشيرة . ثم تطورت العشيرة بدورها وتكونت القبيلة ثم المدينة حتى وصل التطور إلى الدولـة بشـكلها الحاضـر . وقـد تـؤدي هذه الفكرة إلى أن روح الانتماء والتضـامن التـي تجمع بين أفراد الدولة الواحدة تشبه من وجوه عديدة روح الولاء والارتباط في الأسرة ، وتشبه أيضًا إلى حد ما سلطة حاكم الدولة التي تشبه سلطة العائلة[1] .

وكـان هناك بعض التحفظ في قيام الدولة كتنظيم سياسي إلى الأسرة وإرجاع أساس السلطة العامة في الدولة إلى سلطة رب الأسرة . فسلطة رب الأسـرة لهـا صفة شخصية مرتبطة بشخص رب الأسرة ذاته تزول بزواله أو باسـتقلال أفراد الأسرة عنه . أما السلطة السياسية في الدولة فإنها سلطة مجردة دائمة ومنفصلة عن أشخاص من يمارسونها .

وأنه حتى وإن بدت نظرية التطور العائلي سليمة في بعض جوانبها ، إلا أنها ليست وحدها المصدر التاريخي لنظام الدولة . فالتطور الإنساني بكل

---

(١) علـم السياسـة ، د/محمـد نصـر مهنا ، ص٢٧١ – ٢٧٩ . القانون الدستوري والأنظمة السياسية ، د/عبد الحميد متولي ،ص٣٨ – ٤٧ . علم الاجتماع السياسي ، ص١٩ و ٤٧ .

ما تفاعل فيه من فكر ، وما تحكم فيه من مؤثرات دينية وسياسية واقتصادية ، قد شارك جدية في تطور نظام الدولة[1] .

ووفقًا لذلك فإن الدولة تقوم بتنظيم أحوال الجماعة ، وتحقيق الخير لهم ، وعلى ذلك يجب أن يكون للدولة محلاً للإعزاز والاحترام . ومن ناحية أخرى ، فإن بقاء الدولة واستمرارها يستلزم وجود سلطة تقوم بإدارة وتنظيم وحكم الجماعة ، وأن على الأفراد أن يخضعوا تمامًا للدولة والسلطة الحاكمة فيها حتى لا يتعارض ذلك مع مكانة الدولة وسلطانها .

ونتيجة للتطور التاريخي في نظرية نشأة الدولة من أنها نتيجة تفاعل عوامل متعددة أسهمت بعد تطور طويل على مر العصور في إحداث التقارب وإيجاد الترابط بين أفراد الجماعات البشرية . ونظرًا لأن هذه العوامل كثيرة وتتفاوت من جماعة إلى أخرى مثل : « العوامل الدينية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية » . لذا فإنه لا يمكن أن تكون نتيجة التفاعل الذي يحدث بينها واحدة في كل الحالات . لأنه من الطبيعي أن تختلف الدول عن بعضها نتيجة اختلاف العوامل التي تفاعلت ونشأت عنها الدولة . ولذلك فإنه لا غرابة في أن نجد أشكالاً مختلفة للدول وأنظمة الحكم . كما يغدو من الطبيعي أن النظام السياسي الذي يصلح لدولة من الدول قد لا يكون كذلك بالنسبة لدولة أخرى . وقد برز الاتجاه الذي يقول أنه إلى جانب الدين ورابطة الدم ، فإنه يجب اعتبار الوعي السياسي من العوامل التي أسهمت في نشأة الدولة . ويعتمد المنطق الذي يبني عليه هذا الاتجاه ، على أن الفرد

---

(١) المفاهيم الحديثة للأنظمة والحياة السياسية ، د/فوزي أبو ذياب ، ص٦٨ – ٧٠ .

يســـعى إلى إشباع حاجات أساسية لذاته . ومن أهم هذه الحاجات التي تحاول إشباعها الأمن والحماية ضد أي خطر أجنبي ، وأيضًا إشباع حاجات وأهداف مادية ومعنوية ، اجتماعية وثقافية ، وكل هذه الأهداف لا يمكن تحقيقها إلا في ظل الدولة . وكلما زاد حجم الجماعة كلما ظهرت الحاجة إلى تنظيم العلاقات بيـــن الأفراد على شكل قواعد ملزمة . وأصبح لزامًا على مجتمع الدولة أن يلجـــأ إلـــى استحداث قواعد قانونية وضعية تعتمد على تفهم الأفراد ووعيهم بطبيعة العلاقات فيما بينهم[1] .

ووفقًا للقانون الدولي تنشأ الدولة باكتمال العناصر المكونة لها من إقليم ورعايا وحكومة ، واعتراف بقية المجتمع الدولي بهذه الدولة الجديدة ، وتنشأ على إحدى الصور الآتية :

١- قـــد تنشأ الدولة من عناصر جديدة باستقرار مجموعة من السكان فوق إقليم غير مأهول ، أو إقليم كان مسكون بشعب قليل .

٢- قـــد تنشأ الدولة الجديدة من عناصر قديمة نتيجة تفكك أو انحلال بعض الدول القائمة .

٣- قـــد تنشأ الدولة الجديدة عن طريق انضمام عدة دول إلى بعضها على شكل دولة واحدة .

---

(١) قضايا نظرية في السياسة المقارنة ، د/عبدالغفار رشاد ، ص٣٩ – ٤٢ .

obeikandi.com

وإذا توفرت أركان قيام الدولة من : « إقليم ، وشعب ، وحكومة » فإنه يـــبقى لكي تنشأ الدولة أن تسلم الدول القائمة بوجودها وتقبل معاملتها ، وهذا هو ما يسمى في القانون الدولي : «بالاعتراف » .

وفـــي مفهوم سيادة الدولة فإنها في حقيقتها لا تعدو أن تكون نوعًا من التنظـــيم السياســـي والقانون للجماعة البشرية ، وهي التي تتولى أمنها وأمن المقيميـــن عليها ، ومن ثم فهي تحتكر كل أدوات القوة من أدوات القمع مما يمنحها قوة مادية على جانب كبير من الأهمية تضمن قراراتها وأوامرها تنفيذًا جـــبريًا . لذا فإن سيادة الدولة هي تعبير عما تملكه من سلطات عليا . أو كما يقال فإن السيادة هي السلطة المطلقة غير المحدودة التي تمارسها الدولة على رعاياهـــا ، وعلى جميع المنظمات التي يكونها الرعايا داخل الدولة . ويمكن تلخيص الخصائص المختلفة للسيادة فيما يلي :

١- السيادة المطلقة :

وهي أعلى صفات الدولة ، وإطلاق سيادة الدولة يعني أن لا يكون في داخـــل الدولـــة ولا في خارجها هيئة سلطتها أعلى من سلطة الدولة ، فللدولة سلطة على جميع المواطنين ، والصفات الأخرى للسيادة كلها مستمدة من هذه الصفة الرئيسية .

٢- السيادة الشاملة :

ومعـــنى شـــمول السيادة أنها تطبق على جميع المواطنين في الدولة ، والاســـتثناء الوحيد من ذلك هو ما يتمتع به الدبلوماسيون الأجانب المعتمدون

فـــي الدولـــة من حصانات وامتيازات دبلوماسية . والأصل في الاستثناء من ســـيادة الدولـــة بالنسبة للدبلوماسين : « أن دار السفارة تعتبر تابعة أو امتداد لإقليم الدولة التي تمثلها ، وموظفوها يخضعون لسيادة دولتهم » .

٣- السيادة غير قابلة للتجزئة :

فالســـيادة لا يمكـــن تجزئتها ، والدولة الواحدة لا توجد فيها إلا سيادة واحدة .

وبمعيار السيادة والدول ناقصة السيادة تتلخص خصائصها في التالي :

أولاً : الدولة الكاملة السيادة :

التي تتمتع بكل مظاهر سيادتها الداخلية والخارجية ، بحيث لا تخضع في إدارة شئونها في الداخل والخارج لرقابة أو تبعية .

ثانيًا : الدولة ناقصة السيادة :

هـــي التـــي لا يكون لها مطلق الحرية في ممارسة سيادتها الخارجية أو الداخلـــية لارتـــباطها بدولة أخرى ، أو لخضوعها للأمم المتحدة . وتنقسم الدول ناقصة السيادة إلى ثلاث فئات كالتالي :

أ- الدولة المحمية :

وهي الدولة التي تضع نفسها تحت سلطة دولة أخرى أقوى منها .

فالحمايــة نوعــان : الحماية الاختيارية ، والحماية القهرية أي الاستعمارية . وفــي كلــتا الحالتيــن تفقــد الدولــة المحمية سيادتها في المجالين الخارجي والداخلي . إذ تتولى الدولة الحامية التمثيل الدبلوماسي لها ، وإبرام المعاهدات والاتفاقات الدولية . وبالنسبة للدفاع عن أمن الدولة المحمية فإن الذي ينهض بــه هي الدولة الحامية التي لها أيضًا أن تحدد معالم الحكم الداخلي بما يتلاءم والإطار الذي يخدم مصالحها من وراء توليها هذه الحماية . وغالبًا ما تنتهي الحمايــة إمــا باســتقلال الدولــة المحمية ، أو بضمها إلى الدول الحامية ، أو بوضعها تحت سلطة المنظمة الدولية .

ب- الدولة التابعة :

كــل دولــة تخضع لدولة أخرى تسمى « الدولة التابعة » ، وغالبًا يتم حــرمان الدولة التابعة من ممارسة سيادتها الخارجية مع احتفاظها بجزء من ســيادتها الداخلــية . والعلاقات بين التابع والمتبوع لا تخضع لقواعد قانونية ثابتة ، بل تختلف الظروف والملابسات التي أدت إلى قيام التبعية .

جـ- الدولة المشمولة بنظام الانتداب :

هــو أن الدولــة تحــت الانــتداب ، تفقد شخصيتها الدولية وسيادتها الخارجــية كلها . وهي وإن كانت تحتفظ بكيانها فلا يجري عليها حكم الضم للدولــة المنــتدبة . ولنظام الانتداب هدفان : أولهما « مثالي » ، وهو مساعدة الشعوب الواقعة تحت الانتداب حتى تصبح أهلاً للاستقلال ، وثانيهما «مادي » وهــو إرضــاء الأطمــاع الاســتعمارية للدولة التي انتصرت في الحروب العالمية .

د- الدولة المشمولة بنظام الوصاية :

ونظام الوصاية كنظام الانتداب ينقص من سيادة الدولة . فالدولة تحت الوصـــاية لا تملك سلطة تصريف شئونها الداخلية بإرادتها المنفردة . كما لا تـــنفرد بوضـــع نظامها الدستوري ، ولكنها تملك ذلك تحت إشراف المنظمة الدولية[1] .

---

(١) علـم السياسة ، د/محمد نصر مهنا ، ص٢٨٨ – ٣٠٠ . النظم السياسية ، د/ثروت بدوي ، ص٢٣٠. الحريات العامة ، د/عبد الحميد متولي ، ص٨٣ .

obeikandl.com

obeikandl.com

قوة الدولة

هــناك مقومـــات لقياس القوة للدولة كبناء تكامل ، وذلك وفقًا لمعايير تحـــدد مـــدى قـــوة تلـــك الدولة . والقوة تعني قوة أو ضعف دولة ما ضمن المقاييس المقررة لهذا الوصف . وبمعنى آخر مدى الاعتمادات أو المقدرات أو الموارد المتاحة التي يمكن أن تستخدمها الدولة لتحقيق مصالحها وأهدافها الوطنـــية . والقـــوة بذاتهـــا يمكن أن تكون قوة رادعة تمنع الاعتداء عليها ، وتصبح مهابة ويصعب الدخول معها في نزاع أو تهديد لها . ولذا فيكون لهذه الدولـــة المتمتعة بمقومات القوة تأثير إستراتيجي في البيئة الإقليمية والدولية وأن هذه العناصر مجتمعة تعتبر أعمدة التصنيف للقوة تتلخص في التالي :

١- القوة البشرية :

أي عـــدد الســـكان لتلك الدولة ، والبناء الاجتماعي لهم ، وهل هؤلاء السكان متعلمون يستطيعون بعلمهم خدمة المصالح الوطنية .

٢- العنصر المكاني الجغرافي :

ويعنـــي أيـــن تقـــع هذه الدولة هل هي دولة داخلية ولو كانت واسعة الأرجاء أم هي دولة ذات صبغة إستراتيجية تقع على مفاصل هامة من العالم حـــتى ولو صغرت مساحتها . ثم مناخ هذه الدولة هل هو في المناطق الحارة الذي قد يؤثر على الأداء البشري أم في المناطق المتجمدة بالبرودة حيث يؤثر أيضًـــا على أداء البشر ويحد من نشاطهم ، ولذا تبرز أهمية المناخ المعتدل .

ثم أن المساحة الواسعة للدولة يعطيها بعدًا إستراتيجيًا فإذا كانت الدولة واسعة الأرجاء حتى لو سقط جزء منها فستبقى تقاوم بينما لو كانت مساحتها صغيرة فيسهل قضمها أو ابتلاعها .

٣- العنصر الاقتصادي :

وهذا يعني ما هي مقومات الدولة الاقتصادية وما هي ثرواتها الطبيعية من معادن وطاقة وثروات زراعية ، وتمتعها بميزان تجاري وبقوة شرائية .

٤- العنصر التاريخي :

وهـــذا يعنـــي هل الدولة ومجتمعها يتمتعون بتاريخ مجيد لها عراقتها وحضـــارتها وسجلها الزمني الموغل في القدم مثل « الأمة العربية » . ثم هل يتمـــتع هذا الشعب بمعنويات عالية واعتزاز بالذات الحضارية والنفسية . ثم هل هذا المجتمع مترابط لا تفرقه أهداف ومتجانس ، وهل هناك أعراف تنظم حياتهم وأهدافهم .

٥- العنصر التنظيمي الإداري :

وهذا يعني نظام الدولة والحكم .

٦- العنصر العسكري :

وهذا يعني القوات المسلحة للدولة ما هي طبيعة هذه القوات وحجمها والوسائل المستخدمة معها ومستوى تدريبها[١] .

---

(١) مدخل إلى الثقافة والتربية والوطنية ، محمد عليان عليمات ، ص٢٥ – ٢٧ .

إن المقصـــود بكـــل مـــن القـــوة والقدرة في نظرية العلاقات الدولية باعتـــبارها علاقـــات « قوى »والقوة في المجال الدولي هي بالدرجة الأولى علاقات اجتماعية ، ولا تعني في الواقع أكثر من علاقات الدول بما أوتيت من قـــوى . ومـــن ثم علاقات ما بين إرادات تستهدف بقدرتها غايات اجتماعية أو غايات تتمثل في تحقيق المصلحة القومية .

وتحلـــيل القـــوة القومية في العلاقات الدولية يجب أن تظل بمنأى من الـــتعرض لطبيعتها الأخلاقية ، وما إذا كانت تستخدم في الخير أم في الشر . وكذلـــك يجـــب التمييز بين الكيفية التي تجرى بها ممارسة القوى القومية من جانب ، وبين استخدام العنف كظاهرة من مظاهر الممارسة من جانب آخر . فـــالقوة القومـــية عناصرها كثيرة وأساليب استخدامها متنوعة ، وبالتالي فإن الالتجاء إلى العنف ليس إلا واحدًا فقط من هذه الأساليب . وتأسيسًا على ذلك يجـــب عدم الخلط بين القوة القومية والعنف واعتبارها مترادفين ، فأحياناً لا يكون استخدام العنف هو أنجح أساليب ممارسة القوة القومية . حيث أن القوة القومـــية بطبيعتها متغيرة أي أن التغيير في العناصر التي تصنعها لا بد وأن يتبعه تغيرات متشابهة في حجم هذه القوة وفعاليتها . وقد يتبادر إلى الذهن أن الدول ذات الرقعة الجغرافية الممتدة هي الدول القوية ، وكذلك الحال بالنسبة للكـــثافة الســـكانية أو الـــثراء أو التقدم الصناعي أو ضخامة الجيش . ولكن التركيز على أي من هذه العوامل بمفرده لا يوضح القوة الحقيقية للدولة .

وبالتالي فإنه يمكن تعريف القوة القومية بأنها المقدرة على التأثير في سلوك الدول الأخرى بالكيفية التي تخدم أغراض الدول الممتلكة لها . وبدون هذا فقد تكون الدولة كبيرة أو غنية ولكنها ليست قوية . كما أن الجانب الأكبر من قوة الدولة لا يعتمد فقط على قدرتها على التأثير في سلوك الدول الأخرى ، ولكنه يرتبط كذلك بكيفية تقييم الدولة لهذه القوة وأيضًا بتقييم الدول الأخرى لها . وكذلك فإنه هناك اعتبارًا آخر وهو أن توقع أي زيادة مقبلة في قوة الدولة قد يكون من العوامل المساعدة على قدم القوة الحالية لهذه الدولة .

هناك بعض التحليلات التي تحاول إيجاد حقيقة نظرية تصورها لعوامل قوة الدولة في المجال الدولي . لقد دأب الباحثون في المجال الدولي في قوائم تختلف في العدد والتسميات في ضوء معايير معينة لاقتراح صيغة نظرية . وهناك العوامل التي قد تشكل قوة الدولة ومكانها من سلم القوى في المجال الدولي ، وتتضمن ثمانية عوامل هي : « الجغرافية ، الموارد الطبيعية ، المقدرة على الصناعة ، الاستعداد الحربي ، السكان ، الخصائص القومية ، المعنويات القومية ، المهارة الدبلوماسية » . والبعض يرد قوة الدولة إلى مجموعة عوامل هي : « الجغرافية ، الأوضاع السكانية ، القوى الاقتصادية ، العوامل المالية ، الشعور القومي ، ودور رجال الدولة في تشكيل سياستها الخارجية » .

وباســتقراء التاريخ نلاحظ أن عوامل القوة ليست ثابتة زمانًا ومكانًا ، فواقع الحياة الدولية يؤكد أن عوامل القوة تختلف من عصر إلى عصر . ومن ذلــك أن أســباب القوة في زمن السلم ليست هي نفس أسباب القوة في زمن الحــرب بــل إن نفــس العــامل قد تتفاوت أهميته من عصر إلى عصر . وقــد أثــارت مســألة هدف عمل الدولة في المجال الدولي اتجاهين : اتجاهًا إنســانيًا يرتبط بفكرة الخير « خير الجماعة الدولية – خير البشرية » واتجاهًا ماديًا بفكرة القوة المادية والذي ينتهي إليها « مفهوم المصلحة القومية » .

فقوة الدولة لا تعتبر ذات طبيعة مطلقة ، فقد تكون ذات تأثير معين في وقــت ما ، ولكنها في وقت آخر وفي ظل علاقات قوى مختلفة قد تؤثر على نحــو مخــتلف ســواء بالزيادة أو النقص . ونظرية أن بعض مكونات القوة القومــية تتمــتع بطبيعة دائمة لا ينصرف إليها التغيير . وهذه النظرية غير واقعية مع التطورات التكنولوجية التي تجعل من فكرة وجود عوامل ثابتة في قــوة الدولة أمر غير عملي . ويجب عدم التركيز على عامل مفرد في عملية التقييم بل الأخذ بعين الاعتبار كل العناصر التي تؤثر في قوة الدولة[1] .

---

(١) علم السياسة ، د/محمد نصر مهنا ، ص٤٦٥ – ٤٧٤ .